الحملة الفرنسية على سورية (بلاد الشام) ١٧٩٩م

د. خالد محمد عطية صافي*

* أستاذ التاريخ المساعد، كلية الآداب، جامعة الأقصى – غزة.

ملخص الدراسة:

تعالج هذه الدراسة جوانب من الحملة الفرنسية على سورية (بلاد الشام) في سنة ١٧٩٩م. فهي تناقش أسباب الحملة وتحضيراتها العسكرية، وزحفها على فلسطين. وتسلط الضوء على احتلال يافا، والمجزرة التي ارتكبها الجيش الفرنسي هناك. وتبرز الدراسة المقاومة المحلية ضد الجيش الفرنسي أثناء زحفه على عكا. وتصف الحصار الفرنسي لعكا، والعمليات العسكرية حول أسوار المدينة وفي الجليل. كما تتناول الدراسة فشل الحملة العسكرية وانسحابها من فلسطين. وفي النهاية تعرض الدراسة نتائج الحملة الفرنسية وتأثيرها.

Abstract

This study focuses upon the French expedition on Syria (Bilad al-Sham) in 1799. It discuses its causes, military preparations and its invasion to Palestine. It sheds light on the occupation of Jaffa and the massacre which was committed by the French army there. The study shows also the local resistance against the French army through its marching towards Acre. It explains the French siege of Acre, the military operations around the City Walls and in Galilee. Moreover, the study describes the failure of the military campaign and its withdrawal from Palestine. To conclude, the study examines the results of the French expedition and its impact.

مقدمة

تعدُّ الحملة الفرنسية على بلاد الشام استمراراً للحملة الفرنسية على مصر التي تعد فاتحة الاستعمار الأوروبي الحديث في المشرق العربي. و شكلت حلقة من حلقات التنافس والصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا. ودشنت مرحلة مهمة من مراحل ما اصطلح على تسميته بالمسألة الشرقية. فبعد أن نجح نابليون في احتلال مصر في يوليو ١٧٩٨م قاد حملة عسكرية على بلاد الشام في شباط ١٧٩٩م لأسباب عديدة، بعضها ارتبط بمشاريع وطموحات داعبت مخيلة نابليون أو نسبت إليه، فحاول لاحقاً أن يسبغ عليها المصداقية، وبعضها الآخر كان أكثر واقعية تمثل في تأمين حدود مصر الشرقية، ومهاجمة حشود أعدائه قبل أن تزحف على قواته في مصر على اعتبار أن خير وسيلة للدفاع هو الهجوم، إضافة إلى محاولة ضم بلاد الشام إلى مصر.

وقد نجح الجيش الفرنسي في احتلال المدن الفلسطينية الساحلية بعد مقاومة عنيفة أحياناً كما حدث في يافا أو بعد مناوشات بسيطة كما حصل في غزة، أو دون مقاومة تذكر كما في حيفا. ولكن والي صيدا ودمشق ـــ أحمد باشا الجزار ـــ لم يختر استراتيجية المواجهة الجبهوية المفتوحة والمباشرة مع الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بل فضل استنزاف الجيش الفرنسي من خلال التحصن في عكا واتخاذها قلعة لمقاومة الزحف الفرنسي. وقد نجحت هذه الاستراتيجية بفعل استبسال مدينة عكا بقائدها، وحاميتها، وأهلها إضافة إلى مساندة الأسطول الإنجليزي بقيادة سدني سميث، ووصول التعزيزات العثمانية. وقد شكلت المقاومة المحلية ممثلة في هجمات الفلاحين بقيادة شيوخهم في مناطق جبال نابلس وغيرها على الجيش الفرنسي أثناء زحفه أو حصاره لعكا عاملاً مهماً في استنزاف الجيش الفرنسي وتحقيق النصر النهائي. فشل نابليون في السيطرة على عكا، وعاد أدراجه إلى مصر بعد أن فقد نصف عدد قواته بين قتيل وجريح ومريض بالطاعون. وقد ألحقت الحملة في ذهابها وإيابها أضراراً جسيمة بالمدن الساحلية، وهي، وإن لم تترك أثراً كبيراً على البلاد في النواحي السياسية والإدارية والعلمية كما حدث في مصر؛ تركت أثراً مهماً على المدى البعيد وهو فتح أنظار الدول الأوروبية الأخرى لاسيما بريطانيا على أهمية احتلال مصر والمشرق العربي.

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الحملة الفرنسية على بلاد الشام والتي شكلت فلسطين مسرحاً رئيساً لعملياتها العسكرية. وعلى الرغم من توفر بعض الدراسات -التي كانت في مجملها غير أكاديمية ـــ عن الحملة الفرنسية على مصر والشام فإنها تميزت بالتركيز

على الحملة على مصر، وتناولت الحملة على الشام بشكل مقتضب وموجز. ولذلك جاءت هذه الدراسة لتسد نقصاً في هذا المجال محاولة تتبع الحملة بدرجة أكبر من التفصيل ولكن دون الإغراق في تناول العمليات العسكرية. كما تسعى الدراسة إلى إبراز المجزرة التي ارتكبها الجيش الفرنسي في يافا، وإظهار الدوافع الحقيقية لارتكابها في ضوء السياق التاريخي للأحداث التي شهدتها فلسطين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وفوق ذلك تحاول الدراسة التركيز على المقاومة المحلية__ التي واجهت الإهمال من الدراسات التاريخية المختلفة- وإبراز دورها لكونها عاملاً رئيساً من عوامل تحقيق النصر وإفشال الحملة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف استخدم الباحث المصادر التاريخية الأولية العربية التي تعالج تلك الفترة والحدث مثل: "الجبرتي"، و"الترك"، و"الشهابي". وفي ظل فقر المكتبات المحلية بالمصادر والوثائق الفرنسية استعين بالمراجع الأوروبية التي اعتمدت في مادتها على المصادر الفرنسية من مراسلات رسمية، ورسائل لضباط وجنود الحملة مع ذويهم، ومذكرات. ومن الكتب التي كانت خير عون في ذلك، تلك الكتب التي ألفت من قبل لوكروا، وهيرولد، ولورنس وآخرين. وقد حاول الباحث مواجهة النقص الشديد في المصادر الأولية التاريخية في مكتبات قطاع غزة بالاستعانة بالمصادر المتوفرة في مكتبات الضفة الغربية والأردن وجمهورية مصر العربية.

أولاً: جذور الفكرة الاستعمارية بالنسبة للمشرق

ترجع جذور الفكرة الفرنسية للاستيلاء على الشرق عامة ومصر خاصة إلى بداية القرن الثامن عشر. فقد أدرك الملك لويس الرابع عشر Louis XIV أن أرض مصر هي مفتاح تجارة الشرق، وأن احتلالها سيشكل وسيلة فعالة لكبح ازدياد النفوذ البريطاني في الهند[1]. ثم تجدد الاهتمام بالفكرة رسمياً سنة ١٧٧٧م عندما أوفدت وزارة الخارجية الفرنسية البارون دي توت De Tott في مهمة سرية لشرقي البحر المتوسط لدراسة إمكانية الاستيلاء على مصر، وإحالتها إلى مستعمرة فرنسية. وبعد زيارته لمصر قدم تقريره سنة ١٧٧٩م، وأيد فيه مشروع احتلال فرنسا لمصر[2]. ورافق دي توت في رحلته ?ينتور دي ?ارادي Venture de Paradis الذي أمضى سنوات طويلة في القنصلية الفرنسية في صيدا، وكتب تقريراً يؤكد فيه أن احتلال فرنسا للساحل السوري سوف يلقى ترحيباً من الدروز والموارنة، وأكد ذلك مور Morean، القنصل الفرنسي في مصر، الذي قال: "بأن سيطرة الجيش الفرنسي

على مصر يتطلب تأمين الساحل السوري "[٣]. وبذلك ارتبطت فكرة احتلال مصر باحتلال الساحل السوري منذ بداية المخطط الفرنسي للشرق. وظل سيل المذكرات عن المسألة الشرقية يغمر وزارة الخارجية الفرنسية طوال عشرين عاماً (١٧٧٧-١٧٩٩م). وبعض هذه المذكرات كان بتكليف من الحكومة وإن كان أكثرها قد أقحم عليها. وقد أيدت جميع هذه المذكرات تقريباً الاستيلاء على مصر، وخلعت عليها صورة براقة[٤]. وقد أخذت الفكرة طابعها العملي لدى كل من تاليران Talleyrand، عضو حكومة الإدارة الفرنسية و وزير العلاقات الخارجيةً، ونابليون بونابرت Napoléon Bonaparte وبذل كل منهما جهوداً عظيمةً لإقناع الحكومة الفرنسية للتصديق على المشروع وهو ما تم في مارس ١٧٩٨م[٥]. ثم جهزت حملة نجحت لاحتلال مصر في يوليو ١٧٩٨م. على الرغم مما أثير من أسباب ودوافع حولها من قبل المؤرخين مثل: خشية حكومة الإدارة من نفوذ نابليون والرغبة بإبعاده عن باريس، أو سعي نابليون إلى خلق أمجاد له في الشرق فإن هذه الأسباب وإن كانت في مجملها أو بعضها صحيحة فإن فرنسا ما كانت لتجازف في حملة من خيرة جنودها وقوادها مع إمكانية تعرضها للخطر من قبل الأسطول البريطاني في البحر المتوسط من أجل ذلك فحسب[٦]. وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأهمية ترتبط بتاريخ الاستعمار الفرنسي نفسه، والاتجاه نحو تكوين مستعمرات جديدة، وتوجيه ضربة إلى انجلترا ألد أعداء الثورة الفرنسية وقطع طريقها إلى أكبر مستعمراتها(الهند) وأكثرها أهمية. لاسيما بعد أن أدرك نابليون وحكومة الإدارة صعوبة مهاجمة إنجلترا نفسها[٧]. وبذلك شكلت الحملة على مصر ثم بلاد الشام حلقة من حلقات التنافس والصراع الاستعماري الأوروبي للسيطرة على مستعمرات جديدة والحصول على الامتيازات التجارية والصناعية[٨]. وساعد ضعف الإمبراطورية العثمانية فرنسا في تنفيذ مشروعها.

ثانياً: دوافع الحملة الفرنسية على بلاد الشام

كانت بلاد الشام أو سورية ـــ كما تستخدم في المصادر الأوروبية ـــ مقسمة إدارياً إلى أربع ولايات هي حلب، ودمشق، وطرابلس وصيدا[٩]. ودارت رحى الحملة على أرض القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام (أي فلسطين التي تشكلت إدارياً وسياسياً في عهد الانتداب البريطاني، والتي كانت في تلك الفترة لا تشكل وحدة إدارية وسياسية واحدة بل تنقسم إدارياً بين كل من ولايتي دمشق وصيدا). وقد اختلفت الروايات التاريخية حول أهداف

الحملة الفرنسية على بلاد الشام، ومزجت بين طموحات نابليون وأحلامه في تنفيذ مشروعين ربما فكر في أحدهما أو في كليهما. ويتمثل المشروع الأول في احتلال بلاد الشام فالعراق ثم سلوك طريق الهند، وطرد الإنجليز واستعادة المستعمرات السابقة لبلاده (١٠). ولا توجد إشارات كافية حول مدى جدية نابليون في فكرته، فالإشارة الوحيدة حول مشروع الهند هو رسالة بعثها إلى أحد الانفصاليين في الهند ويدعى تيبو ينبؤه بها بقدومه إلى الهند لتحريرها من الإنجليز (١١). والمشروع الثاني يقوم على التزود بعساكر من بلاد الشام مستغلاً كره الأهالي للعثمانيين، والتوجه شمالاً نحو جبال طوروس والقضاء على الدولة العثمانية ثم النمسا والعودة إلى بلاده (١٢). وذُكر أن نابليون قد عبر عن نيته من الحملة لزميله الجنرال بوريين Bourrienne وهما قبالة أسوار عكا " بوريين. . . إذا نجحت في فتح هذه المدينة فإنني سأجد بها كنوز الجزار وأجد أسلحة تكفي لثلاثمائة ألف جندي عندئذ أهيج أهالي سوريا الذين يبغضون الجزار لظلمه . . . ثم أسلح منهم جيشاً عرمرماً وأقصد دمشق وحلب فينضم إلي القوم كمخلِّص لهم من المظالم ثم أسير بجيوش لفتح الآستانة وأُنشئ في الشرق إمبراطورية عظيمة الشأن" (١٣). وقد رجح الرحالة فولني Volney ــ والذي اعتبر المرشد الفكري لنابليون ــ هذا المشروع فيما كتبه في الصحافة الفرنسية في ١٦ نوفمبر ١٧٩٨م. واستبعد مشروع الزحف على الهند بسبب العقبات الجغرافية والبشرية الضخمة وخاصة في غياب البحرية(١٤).

ويمكن القول: إن نابليون لم يكن قط يستبعد أي احتمال وهو يعلن أن هدفه الأول من غزو سورية "هو هزيمة الجزار والاستيلاء على يافا وعكا وتأليب المسيحيين والدروز. . . ثم ترك ما بقي للظروف" (١٥). وفي اليوم السابق لرحيله عن القاهرة أرسل نابليون لحكومة الإدارة كتاباً يشرح فيه أهداف حملته وقال: إنها تتمثل في ثلاثة أسباب: " دعم فتحه لمصر بهزيمة الأعداء على حدودها، وبها يمنع نزول جيش تركي إنجليزي، وإرغام الباب العالي على تغيير موقفه وربما حمله على فتح باب المفاوضات، وحرمان الأسطول الإنجليزي الذي يجوب البحر المتوسط من قواعد تموينه في سوريا" (١٦). وتبدو هذه الأسباب أكثر معقولية وواقعية. وربما هناك أسباب أخرى دفعت نابليون ومنها رغبته في الحصول على المدد اللازم من المؤن والجنود والأخشاب من بلاد الشام وتعويض الخسائر التي أصابته على يد الإنجليز في معركة أبي قير(١٧). فعند دخول الجيش الفرنسي غزة قام بتوزيع منشور موجه إلى أهالي غزة والرملة ويافا جاء فيه: "نعلمكم أننا قد حضرنا في هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار

عنكم، وإلى أي سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التي ما كانت من حكمه، و إلى أي سبب أيضاً أرسل عساكره إلى قلعة العريش بذلك هجم على أراضي مصر فلا شك كان مراده إجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه" [١٨]. وقد ادعى نابليون في المنشور انه يحارب المماليك والجزار وليس السلطان العثماني وذلك خوفاً من إثارة نقمة المسلمين ضده. وهو يكشف عن بعض أسباب الحملة الفرنسية على بلاد الشام. ولكن ذلك لا يعدو بحثاً عن ادعاءات ومبررات واهية للحملة لإخفاء الأهداف الحقيقية الاستعمارية لها.

وكانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب على فرنسا في سبتمبر ١٧٩٨م بدعم من روسيا وإنجلترا بسبب حملتها على مصر. وقامت باعتقال موظفي المفوضية الفرنسية في حصن "الأبراج السبعة" كما طال الاعتقال جميع القناصل والتجار الفرنسيين المقيمين في الآستانة وسواها[١٩]. وقد نجحت بريطانيا بتحويل التحالف الفعلي القائم بين روسيا والدولة العثمانية إلى حلف قانوني ومعاهدة انضمت إليها، ووقّع عليها في القسطنطينية في ٣ و٥ يناير ١٧٩٩م. وتكفل المعاهدة وحدة الأراضي العثمانية وإعادة دمج مصر بها، وتنص أيضاً على تنسيق عمل الدول الثلاثة، حول حظر عقد أي صلح منفرد مع فرنسا [٢٠]. وعندما أدركت الدولة العثمانية عدم اكتفاء نابليون بمصر وأنه يستعد لغزو الشام منحت الجزار، والي صيدا، مناطق جديدة لتقوية سلطته وجبهته للوقوف أمام التهديد الفرنسي، وأن تكون عكا بحصانتها قاعدة المقاومة. فعينت الجزار في ٩ كانون الثاني ١٧٩٩م حاكماً على ولاية طرابلس ومقاطعة يافا وغزة[٢١].

وكانت الدولة العثمانية قد تحركت لبناء جبهة قوية في بلاد الشام لمواجهة التهديد الفرنسي فعينت أولاً إبراهيم باشا والي الشام سرعسكر (قائد الجيش)، وأوكلت له مهمة محاربة الفرنسيين. ولكن الجزار رفع العديد من الشكاوى ضد إبراهيم باشا ألمح فيها إلى رغبته بقيادة الجيش فعزلت إبراهيم باشا عن ولاية الشام وقيادة الجيش، وأصدرت فرماناً بتعيين أحمد باشا الجزار، والي صيدا، والياً على الشام أيضاً وقائداً للقوات العثمانية هناك [٢٢]. وأمرته بتعبئة جيش لمحاربة الفرنسيين وطردهم من مصر "قد أمرناك أن تبادر إلى القيام بقتال الفرنساوية اللئام مصحوباً بالذخائر والعسكر" [٢٣]. وكان السلطان العثماني قد أرسل فرماناً إلى أهل الشام ومصر لمحاربة الفرنسيين قال فيه: "يا جميع المؤمنين بالله و برسوله الأمين، أظهروا الهمة المحمدية في حرب هذه الملة الردية. . . وكونوا على قلب واحد واتفاق

محض "[٢٤]. وقام الجزار بتعزيز تحصينات وحاميات حيفا و يافا وغزة وبإرسال آخرين إلى العريش قرب الحدود مع مصر ووجه منشوراً إلى كل البكوات والأمراء والمشايخ والدروز وشيوخ البدو يدعوهم فيه إلى محاربة الفرنسيين [٢٥].

وقد أرسل نابليون رسائل عدة للجزار ووالي دمشق حاول فيها استمالتهم إلى جانبه حتى لا يحاربوه ذاكراً السبب من مجيئه إلى مصر ألا وهو محاربة المماليك وقتالهم. وكان نابليون قد أرسل للجزار كتاباً في ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م فرفض الأخير استقبال رسوله، فأرسل له رسالة أخرى في نوفمبر يؤكد نيته في عدم القتال معه، ومن أجل ذلك على الجزار أن يطرد إبراهيم بك زعيم المماليك مسافة أربعين فرسخاً من الحدود المصرية وأن يطلق التجارة بين دمياط وسورية ولكن الجزار رفض ذلك [٢٦]. وكان إبراهيم بك ــ زعيم المماليك ــ قد هرب إلى بلاد الشام مع نحو ألف من مماليكه إضافة إلى باكير باشا ــ والي مصر العثماني ــ بعد هزيمة المماليك في معركة الأهرام في مصر، وأخذ يرسل المنشورات إلى مصر محرضاً على مقاومة المصريين ومنتظراً مساعدة العثمانيين لغزو مصر [٢٧].

وأعلن نابليون للأعيان في مصر بأنه عازم على الذهاب إلى الشام لمحاربة المماليك والجزار العازمين على الحضور لمصر. "فيقطعونهم ويمهدون البلاد الشامية، لأجل سلوك الطريق ومشي القوافل والتجارات براً وبحراً لعمار القطر وصلاح الأحوال" [٢٨]. وهذا يشير إلى استمرار نابليون بإخفاء نواياه الحقيقية وبادعاءاته الزائفة بأنه يحارب الجزار. و يبدو أن الجزار لم تكن لديه نية مهاجمة مصر لإدراكه صعوبة ذلك، لذلك لم يتخذ سوى موقف المدافع فقط. وكان من الواضح أن هدف نابليون هو احتلال الشام فقد ذكر نقولا الترك أن هدف الفرنسيين هو قتال الجزار والمماليك والاستيلاء على بلاد الشام" وابذرهم بتلك البراري والقفار... وأقطع آثارهم من تلك الديار... وأريح منهم مصر وتلك الديار" [٢٩]. وذكر نوفل " ولذلك عزم نابليون على قهر الباشا المذكور (أحمد باشا الجزار) والاستيلاء على الشام قبل أن يتقوى عسكر الدولة فيها" [٣٠]. ويمكن القول: إن بلاد الشام تشكل خط الدفاع الشرقي، فلها أهمية كبرى لأمن مصر، ولذلك شكلت منذ القرن التاسع الميلادي هدفاً متكرراً لحملات عسكرية انطلقت من مصر لضمها إليها. وجُددت تلك المحاولات في القرن الثامن عشر على يد علي بك الكبير وبعده محمد بك أبو الدهب. وبالتالي يمكن النظر إلى الحملة الفرنسية على بلاد الشام على أنها استمرار للمحاولات السابقة في التاريخ التي هدفت إلى تأمين حدود مصر وأمنها، وإنشاء إمبراطورية تضم البلدين (مصر والشام).

ثالثاً: إعداد الحملة وتجهيزها

بلغ عدد رجال الحملة الفرنسية على بلاد الشام نحو ثلاثة عشر ألفاً (٣١). ولم تكن فرق الحملة الأربعة التي يقودها كليبر Kléber، وبون Bon، ولان Lannes، ورينيه Regnier في كامل قوتها لأن فصائل قد اقتطعت منها لتبقى في مصر. وضمت فرقة كليبر ٢٤٩٩ عنصر، وفرقة الجنرال بون ٢٫٤٤٩، وفرقة الجنرال لان ٢٩٢٤، وفرقة الجنرال رينيه ٢١٦٠ عنصر يضاف لهم ٨٠٠ عنصر من الفرسان بقيادة الجنرال مورا Murat و٣٤٠ من سلاح الهندسة بقيادة الجنرال كافاريللي Caffarelli و ١٣٨٥ من سلاح المدفعية بقيادة الجنرال دومارتان Dommartin فضلاً عن ٤٠٠ من الأدلاء الراجلين وراكبي الخيول و٨٨ من الهجانة وبذلك يبلغ المجموع الكلي ١٢٩٤٥ فرداً (٣٢). ولا يشتمل هذا العدد على الموظفين العرب الملتحقين بها من مترجمين، وأرباب الصنائع كالحدادين، والنجارين، ولا على الموظفين الفرنسيين والأطباء (٣٣). كما اصطحب الجيش الفرنسي معه العديد من النساء والجواري حيث ذكر الجبرتي "خرج أيضاً عدد كبير من عسكرهم ومعهم أحمال كثيرة حتى الأسرة والفرش والحصر وعدة مواهي ومحفات للنساء والجواري" (٣٤). واصطحب نابليون معه مصطفى كتخدا -آغا الإنكشارية و أمير الحاج ــ كما اصطحب معه بعض علماء القاهرة من بينهم قاضي العسكر- بجمقشي زاده(٣٥). وربما هدف نابليون من ذلك إلى تدعيم صورة حملته وإحباط تحريض الجزار والسلطان العثماني عليه بشعارات أسلامية، وليوهم سكان بلاد الشام المسلمين أن علماء الدين في مصر يباركون حملته، وقد يفيد منهم في مفاوضاته مع الجزار أو الباب العالي، كما أنهم يشكلون رهائن في يده خشية اندلاع الثورة في مصر في غيابه. وقد فشل نابليون في ذلك إذ هرب كل من القاضي ومصطفى كتخذا عند وصول الحملة إلى مشارف الشام. وعندما وصل مصطفى كتخذا إلى الجزار، اتهمه الأخير بالتجسس وقام بقتله. وقد اعتذر باقي العلماء المصريين بسبب مشقة السفر فأذن لهم نابليون بالعودة(٣٦).

وضمت الحملة الكثير من الجمال لنقل المؤن، ومدفعية الميدان أما مدفعية الحصار التي بلغ عددها ٢٤ مدفعاً فتبين أنها أثقل من أن تنقل على اليابس عبر المستنقعات والصحراء ولذلك شحنت في مراكب تحملها من الإسكندرية إلى حيفا (٣٧). واتجهت الفرق الفرنسية تباعاً باتجاه بلاد الشام على أن تكون نقطة الالتقاء في قطية قرب الحدود المصرية الشامية، وهي نقطة

منيعة أمر نابليون بإقامتها تمهيداً لغزو سورية. وقطعت الفرق الفرنسية الصحراء وقد أصابها الكثير من الجهد والإعياء والجوع بحيث اضطر الجنود إلى أكل الجمال والخيل والحمير[٣٨]. ووصلت طلائع الحملة الفرنسية إلى العريش التي تشكل نقطة الحدود بين مصر وبلاد الشام في ٨ فبراير ١٧٩٩م.

رابعاً: سير الحملة في بلاد الشام

أ- الزحف على العريش وغزة واللد والرملة

وصل الجنرال رينيه إلى العريش في ٧ فبراير ١٧٩٩م التي اعتبر نابليون أن استيلاء الجزار عليها ووضعه حامية فيها من المماليك والمصريين والمغاربة بمثابة اعتداء على الأراضي المصرية. واحتلت القرية فيما رفضت حامية القلعة التي يقدر عددها بنحو ١٥٠٠ التسليم. ووصلت فرقة كليبر إلى العريش في ١٤ فبراير. واستمر حصار القلعة من قبل فرقتي رينيه وكليبر لمدة عشرة أيام تبودلت خلالها القذائف والقنابر[٣٩]، وقتل الجيش الفرنسي أفراد نجدة قدمت لنصرة الحامية بقيادة قاسم بك المسكوبي[٤٠]. وقد قاومت حامية القلعة الجيش الفرنسي، وأنزلت به خسائر عدة. ومع أن هذه المقاومة، تكن متوقعة من جانب الفرنسيين فقد دفعتهم إلى إجراء مفاوضات مع قائد الحامية في ١٨ فبراير وذلك بعد وصول نابليون إلى العريش في ١٧ فبراير مع باقي أفراد الحملة. وأُعطيت الحملة الأمان بالانسحاب بكل أشكال الشرف العسكري أي أن تخرج بسلاحها إلى بغداد على أن يقسم أفرادها ألا يحارب أي منهم في جيش الجزار مدة عام، وأن تترك مؤنها للفرنسيين. ولكن بعد تسليم الحامية ودخول الفرنسيين للقلعة، انتهكت شروط الاتفاق وقاموا بنزع سلاح رجالها، وأرسل المماليك (التابعون لإبراهيم بك) إلى مصر[٤١].

ورأى المؤرخ الفرنسي لوكروا Lockroy أن نص الاتفاق بين الطرفين ظل دون تطبيق إذ بدا للمغاربة وأرناؤوط العريش أن الذهاب إلى بلاد النهرين تطبيقاً لاتفاق تم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أمرٌ مضحك جداً. فذهب بعضهم إلى كليبر وعرضوا عليه الخدمة تحت أمره فيما مضي القسم الآخر بهدوء إلى الجزار[٤٢]. وقد بلغ عدد الذين التحقوا بالجيش الفرنسي نحو ٤٠٠ فرد[٤٣]. ويرى هيرولد Herold أن الكثيرين منهم حُملوا بوسائل تتفاوت في اللين على الانضمام للقوات الفرنسية خيراً من الهلاك في الصحراء. وقد هرب معظمهم لاحقاً عندما سنحت لهم فرصة لذلك[٤٤]. وأياً كان الأمر سواء دخلوا برضاهم أو عنوة فقد

شكل ذلك نقضاً للاتفاق من قبل الطرفين. وأظهر الجنود المغاربة الذين حاربوا إلى جانب القوات الفرنسية- كون العديد منهم من أفراد الفرق العسكرية الأخرى جنوداً مرتزقة- أنهم لا يألون جهداً في الانضمام إلى الأعداء إذا رجحت كفتهم.

وزحف الجيش الفرنسي بعد ذلك باتجاه غزة بعد أن أبقى حامية صغيرة في العريش، واحتل كلاً من رفح وخانيونس دون مقاومة. وضلت الحملة طريقها بين العريش وغزة، وإن نابليون نفسه مع مجموعة من مرافقيه قد ضل الطريق عنهم قرب خانيونس والتقى الطرفان ببعضهما بعد مسيرة يوم [٤٥]. وعندما شارفت الحملة على الاقتراب من غزة حدثت مناوشات بينها وبين ثلة من عسكر الجزار والمماليك بقيادة عبدالله باشا حاكم غزة.

وقد انهزم حاكم غزة وانسحب مع عساكره على الرغم من إمداد متسلم يافا -محمد آغا الأمين العزوني- لغزة بقوة عسكرية بقيادة ولده محمود الذي قتل [٤٦]. وقد انسحبت القوات العثمانية إلى يافا، بينما انسحب المماليك والقوات المحلية إلى القدس ونابلس. وقد فضل الجزار، الذي ربما أدرك تقدم الأسلحة والمدافع الفرنسية، استراتيجية عدم الصدام الجبهوي المباشر مع القوات الفرنسية والاعتماد على الصد والمقاومة باستخدام الحصون الساحلية حيث أن ذلك سيسمح له بتأخير تقدم الجيش الفرنسي، وإجباره على البقاء على الساحل حتى تصل التعزيزات العثمانية [٤٧]. وعلى أثر ذلك دخل الجيش الفرنسي المدينة دون قتال في أواخر شهر رمضان الموافق ٢٥/ ٢/ ١٧٩٩م، واستولى على ما وجده من " حواصل مشحونة بالذخائر من بقسماط [٤٨] وشعير وأربعمائة قنطار بارود وأثني عشر مدفعاً وحاصلاً كبيراً من الخيام، وكلل (قذائف حجرية كروية الشكل) وقنابر عظام " [٤٩]. وبذلك أمن نابليون قاعدة له في جنوب فلسطين، واستولى على مؤن تكفي لإطعام جيشه. وأقام نابليون في قصر آل رضوان، ومنذ ذلك الحين أطلق السكان عليه قلعة نابليون [٥٠].

وأصدر نابليون منشوراً لأهالي غزة منحهم فيه الأمان وحذرهم من مقاومة الحملة حيث ذكر " من طرف بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالي ونواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى. . . أنتم يا أهالي الأطراف المشار إليها فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا في محلكم ووطنكم مطمئنين مرتاحين وأخبروا من كان خارجاً عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم في محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليهم الأمان الكافي والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم في مالكم وما تملكه يدكم. وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمتهم ووظائفهم على ما كانوا عليه . . . والذي يتظاهر بالغدر يهلك

ومن كل ما حصر تفهمون جيداً أننا نقمع أعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص من كوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين " (٥١) . وحاول نابليون في منشوره استمالة الأهالي باستغلال الشعور الديني، وأنه حريص على الإسلام ولذلك فإن ما حققه من نصر فمن الله . حيث ورد في المنشور " وعلى الخصوص إن دين الإسلام لم يزل معتزاً ومعتبراً، والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين، إذ كل خير يأتي من الله تعالى وهو يعطي النصر لمن يشاء " (٥٢) .

وتوجهت الحملة بعد احتلال غزة إلى أسدود في ٢٨ فبراير، ثم واصلت سيرها إلى مدينة الرملة حيث احتلها الجيش الفرنسي دون مقاومة في أول مارس بعد هرب الكثير من مسلميها . وقال الجبرتي : " إن الفرنساوية وجدوا في الرملة ومدينة لد مقداراً كبيراً من مخازن البقسماط والشعير، ورأوا فيها ألف وخمسمائة قربة (قربة ماء) " (٥٣) . وكان احتلال الرملة ذا أهمية من أجل السيطرة على الطريق بين القدس ويافا، وحماية لظهر الجيش الفرنسي الذي سيحاصر يافا . وأقام نابليون مركز أركان حربه في دير اللاتين في البلدة، كما أقام فيه أيضاً مستشفى عسكرياً سرعان ما امتلئ بالمرضى (٥٤) . وربما قصد بذلك مرضى الطاعون الذي يبدو أن تباشير ه قد بدأت بالظهور في فرقة رينيه .

ثم أكمل الجيش الفرنسي تقدمه نحو يافا . وأبقى نابليون الجنرال رينيه في الرملة من أجل إحكام الحصار من هذه الجهة، ومنع تحرك القوات المعادية لنجدة يافا، وبالفعل فقد قام الجيش الفرنسي بصد هجوم عليه في اللد (٥٥) . وهنا يتساءل المرء عن عدم توجه نابليون إلى القدس على الرغم من اقترابه منها وما يمكن أن يحدثه ذلك من تأثير على المسلمين والمسيحيين داخل البلاد وخارجها . وقد برر نابليون ذلك عندما سأله جنوده عن نيته المرور بها " لا فإن مدينة القدس غير مذكورة في الخطة التي توخَّيت المسير عليها، فلا أروم التحرش بسكان الجبال والتوغل في مأزق يصعب الخروج منه، وفضلاً عن ذلك أخشى أن يهاجمني من الجهة الأخرى فرسان كثيرو العدد " (٥٦) . وربما تبدو إجابة نابليون مقنعة في عدم رغبته في إقحام جيشه في المناطق الجبلية خوفاً من تجزئته وأنه يعد العدة فقط لمدينة عكا معقل الجزار . وأن المدن الساحلية كانت أكثر تحصيناً وبالتالي ضرورة توجيه القوة العسكرية للسيطرة عليها . وأن اهتمام نابليون انصب على المواقع العسكرية، وأن مدينة القدس لم تكن ذات أهمية عسكرية كبيرة . ومن المحتمل أن نابليون اعتقد أن بسط سيطرته على عكا يعنى بسط سيطرته على جميع مناطق فلسطين (٥٧) .

ومما يدعم هذا الترجيح أن نابليون قد طلب من حامية القدس تسليمها ولكنها رفضت، وأجابته بأن القدس تابعة لعكا فإذا استولى عليها سلمت المدينة له (٥٨). وكان الجزار قد عين أحد كبار ضباطه ــ إسماعيل باشا ــ متسلماً لسنجق القدس. وتشير رتبته العالية إلى اهتمام الدولة بحماية القدس والخوف من سقوط المدينة المقدسة في يد الجيش الفرنسي (٥٩). كما أرسل قوات عسكرية وأسلحة جديدة لتعزيز حامية القلعة، بعد أن شكا المتسلم من سوء الوضع العسكري فيها. وقال في الفرمان الذي أرسله إلى متسلم القدس: "نحن مرسلون من طرفنا قدوة الأقران أحمد بيك، وصحبته الآلات والبارود والطوبجية (٦٠)، والعربجية (٦١) وأنفارهم، فالمراد نزولهم في القلعة لأجل تصليح المدافع ولوازمها ... "(٦٢). وفي الوقت نفسه وجه السيد موسى الخالدي- وهو من سكان مدينة القدس ودرس في الأزهر ووصل إلى رتبة قاضي عسكر في الأناضول وأقام في أستانبول- منشوراً إلى القدس يحث فيه أهالي البلاد على مقاتلة الجيش الفرنسي (٦٣).

وقد صدرت في البلاد فتاوى تحث على الجهاد ضد الفرنسيين. ففي الفتاوى الحسينية "سئُل في الطائفة الطاغية الفرنسية، حيث جاسوا خلال الديار، واستولوا على أعظم الأقطار، وهتكوا الأستار وقتلوا الكبار والصغار. فأجاب بأن الجهاد فرض عين، فيتعين على كل مسلم المبادرة مع العساكر المنصورة، إلى قتالهم والثبات عند لقائهم، ويتأكد فرض الجهاد بأمر مولانا السلطان نصره المنان، فمن تأخر استحق عقوبتين لتقصيره فيما فرض الله تعالى، ولمخالفته أمر السلطان الواجب الامتثال. ومن هنا أفتى العلماء بتعزيره التعزير اللائق به من عقوبة" (٦٤). وهذا يشير إلى تهيئة المناخ الشعبي للمقاومة، ومساهمته في القتال ضد الفرنسيين.

ب- احتلال يافا وارتكاب المذبحة فيها

تعد وقائع الحملة في مدينة يافا أكثرها إثارة للجدل، فقد وصلت طلائع الجنود الفرنسيين إلى يافا في ٣ مارس. واستعد للدفاع عن المدينة حاميتها العثمانية وفريق من الأهالي. واختلف المؤرخون في تقدير عدد الحامية فذكر الشهابي بأن عددها كان أثني عشر ألفاً (٦٥). فيما ذكر الترك بأنها تصل إلى نحو ثمانية آلاف (٦٦). ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه وأن الرقم الأقرب إلى الصحة هو حوالي أربعة آلاف مقاتل (٦٧). وعند وصول الجيش الفرنسي بدأ حصار المدينة. ووصف الجبرتي ذلك بقوله: "أمر حضرة ساري عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور

لأجل أن يعملوا متاريس أمنية وحصارات متقنة حصينة لأن وجود سور يافا ملآناً بالمدافع الكثيرة ومشحونة بعسكر الجزار الغزيرة" [٦٨] . وقرر نابليون مهاجمة المدينة واحتلالها بسرعة لجلب الإمدادات إلى مينائها من مينائي دمياط والإسكندرية . وقصف الجنود الفرنسيون المدينة بالقنابل والقذائف، وتبادل الطرفان الهجمات العسكرية مما أوقع العديد من القتلى بينهما . وأرسل نابليون رسولاً إلى قائد حامية يافا يطالبه بالتسليم . ويبين بأن سبب قدومه إلى البلاد هو محاربة الجزار لتعديه على العريش[٦٩] . وهنا اختلفت الروايات التاريخية فبعضها ذكر حبس قائد الحامية للرسول [٧٠]. وذكر البعض أن قائد الحامية قتله ورمي رأسه من فوق السور[٧١] . و أياً كان الأسر أم القتل فإن قائد الحامية يعتبر بذلك قد خالف أعراف الحرب والتعامل مع الرسل .

وقد أثار ذلك نابليون الذي شدد هجومه على المدينة حتى احتلها وسط قتال في شوارعها وبيوتها في ٦ مارس بعد أن فتح الجيش الفرنسي ثغرة واسعة في السور وذلك بالرغم من مقاومة الحامية . وقد فقد الجيش الفرنسي نحو ١٥٠٠ جندي . وبعد سقوط المدينة أباح نابليون المدينة لجنوده الذين أعملوا السيف في رقاب أهلها وقاموا بالسلب والنهب . وقد جاء وصف فظائع ما حدث علي يد الفرنسيين أنفسهم . فوصف أحد رجال الحملة ذلك بقوله: "راح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء والليل كله وفي صباح الغد، فالرجال والنساء والأطفال والمسيحيون والمسلمون وكل من له وجه إنسان سقط صريع جنونهم" [٧٢] . وقال ميو من قادة الحملة: "كنت تسمع في كل مكان صراخ ابنة تغتصب، وتستغيث بأمها التي تهان أو أبيها الذي يذبح ولم يحترم الجنود ملجأ" [٧٣]. أما المصادر العربية كالترك فقد وصفت ذلك بالقول: " ولم يزل هول الحرب في إمداد، والكرب في اشتداد، وتتناثر الرؤوس وتهلك النفوس، وتنهتك الأحرار وتنكشف الأسرار والأستار، وتقتل الرجال والنساء والأطفال. وفاق صوت البكاء والعويل على صوت البارود الجزيل . . . وفي ذلك الحين مات من العساكر ما ينيف عن الخمسة آلاف، ومن أهالي البلد ألفين . . . وأصبحت مدينة يافا لم تجد بها احداً معافىً، ولا بها مستتر، وهي عبرة لمن اعتبر" [٧٤]. وقد ذكر الشهابي "وقتل كثير من النساء والأولاد حتى جرى الدم في أسواق يافا" [٧٥]. ومما يلفت الانتباه هنا أن الجنود الفرنسيين قتلوا المسيحيين والمسلمين على حد سواء دون تفريق في الدين . وتعرضت المدينة إلى السلب والنهب، كما قام الجنود الفرنسيون بسلب السفن الراسية في الميناء [٧٦] .

وعلى الرغم من فظاعة ما حدث فإن الأكثر فظاعة قد تم عندما التجأ نحو ثلاثة آلاف من

رجال الحامية العثمانية إلى القلعة بعد استيلاء الجنود الفرنسيين على المدينة . ثم سلموا أنفسهم بعد أن وعُدوا بالأمان من قبل أثنين من الضباط الفرنسيين أرسلهما نابليون لإعادة النظام للمدينة . ولكن نابليون أمر بقتلهم بالبنادق والسناكي [٧٧] في ١١ مارس . وذكر الجبرتي " أما عسكر الجزار فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف بالسيف والبندق لما وقع منهم من الانحراف " [٧٨] . وذُكر أن الفرنسيين " لم يواروهم التراب ، وبقيت أجسامهم طعاماً للطيور ، وظلت رفاتهم مكشوفة " [٧٩] . وتبرر المصادر الفرنسية هذا التصرف الفظيع من قبل نابليون بأنه اضطر لذلك بحكم صعوبة أسرهم وإرسالهم إلى مصر ، وما يحتاجه من أجل ذلك من حرس هو في أمس الحاجة لذلك ، أو بين خطر إبقائهم مع الجيش وعدم توفر طعام لهم . إضافة إلى أن بعضهم من عساكر العريش وأنهم بذلك قد خالفوا الشرف العسكري بانضمامهم لجيش الجزار ، ذلك الشرف الذي خالفه نابليون نفسه كما ذكر أعلاه . وذكرت بعض الروايات أنه اضطر لذلك أمام تمرد جنوده ، وخشيته من انضمامهم للجزار إن أُخلي سبيلهم [٨٠] .

واستثنى نابليون من القتل عدداً من الأسرى المصريين ، من بينهم نقيب الأشراف عمر مكرم ، والدمشقيين الذين أرسلوا إلى بلدانهم من أجل استمالة الأهالي هناك . [٨١] . ويبدو أن هذه الأسباب واهية : - فأولاً إنعدد الذين يمكن أن يكونوا من عساكر العريش والذين اتهموا بنقض اتفاق العريش قد لا يزيد عن ثلاثمائة أو أربعمائة . وثانياً إن التبرير بأنه لا توجد هناك قوات كافية لنقل الأسرى إلى مصر لا يثبت أمام قيام الفرنسيين بنقل مئات الأسرى المصريين إلى مصر . [٨٢] أما عدم توفر الطعام فهذا السبب لا يصمد أمام ما يشير إليه الجبرتي من عثور الفرنسيين على مخازن الطعام بكميات كبيرة في كل مدينة دخلها الجيش الفرنسي . ويمكن القول : إن من الأسباب الحقيقية لارتكاب هذه المذبحة هو ما أبدته المدينة وحاميتها من مقاومة كبيرة للجيش الفرنسي وما لحق به من خسائر فادحة . كما يمكن الاتفاق مع هيرولد Herold ولورنس Laurensبأن الدافع الحقيقي لقرار ارتكاب مذبحة يافا ليس عسكرياً بل هو دافع سياسي . و أن نابليون في ارتكابه للمذبحة قد تعمد سياسة ترمي للتأثير على الجزار ، فإذا قاوم الجزار في عكا حاق برجاله نفس المصير ، وليس الجزار نفسه إذ أبقى نابليون قائد حامية يافا ، عبد الله باشا ، حياً كإشارة للجزار . وأرسله إلى مصر وقد قتله نابليون بعد عودته إلى هناك [٨٣] . ومن الجدير بالذكر أن نابليون قد أشار في مذكراته التي كتبها في منفاه بأن ما فعله في يافا يمثل وصمة عار في سجله الحافل بالانتصارات العسكرية والمواقف الشجاعة [٨٤] .

وأصدر نابليون في٩ مارس وأثناء ارتكاب جنوده للمذبحة منشوراً لأهالي بلاد الشام وإلى الجزار يطلب منهم التسليم والطاعة وبدا في الوقت نفسه وكأنه يتوعدهم إذا خالفوا ذلك بأن ينزل بهم ما أنزله بأهل يافا وحاميتها . وهذا يؤكد تعمد نابليون ارتكاب مذبحة يافا من أجل ترويع أهالي بلاد الشام عامة وأهالي عكا خاصة . وأدى احتلال يافا إلى إثارة قلق وهياج المسلمين في القدس وباقي أنحاء فلسطين . فاندفع العلماء إلى تحريض الأهالي على مقاومة الفرنسيين الذين كان يتوقع زحفهم على القدس . وكرد فعل على الغزو الفرنسي اعتقل الرهبان من أديرتهم ولاسيما الرهبان الكاثوليك حيث بلغ عدد من أسر منهم اثنين وخمسين راهباً من أديرة القدس وبيت لحم وعين كارم وغيرها . وعلى الرغم من وصول العديد من الفرمانات والأوامر من الآستانة ودمشق بعدم التعرض لرجال الدين فقد ظل الرهبان تحت الحفظ في كنيسة القيامة مدة اثنين وسبعين يوماً أي بعد انسحاب نابليون من أمام عكا [٨٥] .

وفي ٨ مارس بدأ تفشي مرض الطاعون بين الجنود الفرنسيين . وفي اليوم التالي أُدخلت إحدى وثلاثون حالة إلى المستشفى الذي أقيم في دير الروم الكاثوليك في المدينة . وعلى الرغم من وفاة أربعة عشر مصاباً منهم فإن نابليون حاول إخفاء ذلك في بداية الأمر خوفاً من إضعاف معنويات جنوده . ولكن بعد استفحال المرض اضطر إلى زيارة المصابين في المستشفى في ١١ مارس [٨٦] . وذكر الجبرتي بأن المرض قد تفشى أيضا في مصر[٨٧] . وهذا يشير إلى إمكانية إحضار الجنود الفرنسيين المرض معهم من مصر [٨٨] . بينما أرجع لوكروا سبب تفشي المرض إلى تراكم الجثث داخل مدينة يافا وضواحيها مما أدى إلى تسمم الهواء وتغطية أجساد المصابين بالدمامل (مفردها دمل : وهو بثرة جلدية متقرحة) [٨٩] . و أياً كان السبب أو بداية انتشار المرض فإنه قد تفشى بسرعة كبيرة بين الجنود الفرنسيين والأهالي إلى درجة إعياء الأطباء عن وقف انتشاره . وأمر نابليون بعد تفقده للمستشفى إلى تجنيد المسيحيين من أتباع الكنيسة اليونانية إجبارياً لخدمة المصابين في المستشفيات ، والمسيحيين من أتباع الكنيسة اللاتينية والأرمنية لملاحظة حالات الطاعون في المستشفى[٩٠] . وكأنه بذلك يحكم عليهم بالموت سلفاً . أما على الصعيد الإداري فقد أنشأ نابليون ديواناً محلياً اشترك في عضويته المسلمون والمسيحيون . وعهد بإدارة سنجقي يافا وغزة والرملة إلى رئيس إدارة الجيش الجنرال جريزيو Grézieux الذي توفى بالطاعون بعد عدة أيام [٩١] .

ج- الزحف على عكا وحصارها

زحف الجيش الفرنسي بعد احتلال يافا بمحاذاة الجبال نحو عكا، وتعرض الجيش أثناء زحفه إلى هجمات متكررة من رجال نابلس الذي استنجدهم الجزار على الرغم من سوء العلاقة بينهم. فقد لبى شيوخ نابلس وعلى رأسهم الشيخ يوسف الجرار نداء الجزار و السلطان العثماني، سليم الثالث، الذي أرسل فرماناً لحسن آغا النمر بصفته أمير ألاي السباهية (٩٢) في نابلس يطلب منه الانضمام لقتال نابليون (٩٣). وقد كتب يوسف الجرار شعراً يستنهض فيه شيوخ نابلس وعائلاتها لمقاومة الفرنسيين نقتطف منه ما يلي:

ملت الكفر أجونا صايلين مرادهم يدعو الجوامع داثرات(٩٤)
يانوابلسه نوضوا(٩٥) أجمعين نوضت العقبان من الجو خاويات
سيروا على عكا جميعاً كلكم لازمون الشر في عكا بنات(٩٦)
ودعوا حريمكم يا مسلمين كلنا اسلام على الدين الثبات
من قتل منا فهذا يومه من سلم منا حظي بالفاخرات(٩٧)

وقد رفض شيوخ نابلس عرض نابليون بإعطائهم الأمان مقابل طرد المماليك ورجال الجزار من مناطقهم (٩٨). وقد حاول شيوخ نابلس نجدة يافا قبل سقوطها وهاجموا الجيش الفرنسي. ولكن ميمنة الجيش الفرنسي صدتهم، فانسحبوا إلى وادي عزون حيث حوصروا لخمسة أيام، وأوشكت ذخائرهم أن تنفذ حتى وصلت نجدة لهم بقيادة حسن آغا النمر. فانقلبت الدائرة على الفرنسيين، الذي حُوصر قسم منهم في أحراش وادي الرشا. فأشعل النابلسيون النار في الأحراش مما أدي لحرق الجنود الفرنسيين، وأجهزوا على من نجا منهم. وذكر النمر أنه بسبب ذلك سمي جبل نابلس "بجبل النار" (٩٩).

وقد فقدت الفرقة التي أرسلها كليبر بقيادة دوماس نحو ثلاثين جندياً وعربة مدفع، وقتل دوماس نفسه (١٠٠). ونصب النابلسيون أيضاً كميناً للجيش الفرنسي قرب وادي قاقون محاولين جره إلى الجبال لاستنزافه ولإفقاده ميزة تفوق مدافعه. ولكن نابليون أدرك غرضهم فاكتفى بمناوشتهم على التلال القريبة وضربهم بالمدافع. ثم أكمل الجيش سيره باتجاه عكا بعد أن ارتد رجال نابلس إلى الجبال وخسروا نحو أربعمائة قتيل حسبما ذكر نقولا الترك فيما ذكر لوكروا أن الفرنسيين تكبدوا أيضاً خسائر كبيرة (١٠١). وعلى الرغم من أن مناوشات رجال نابلس لا تزيد عن غارات مفاجئة يغلب عليها الكر والفر على أطراف الجيش الفرنسي ومؤخرته وخطوط تموينه فإنها شكلت إسهاماً لا يستهان به في استنزاف الجيش الفرنسي

وإنهاكه.

وعندما وصل الجيش الفرنسي إلى حيفا في ١٦ مارس خرج الأهالي طالبين الأمان وسلموا المدينة دون مقاومة (١٠٢). واستولى الجيش على نحو عشرين ألف جراية من البقسماط والرز (١٠٣). وعلى الرغم من الموقع المهم لحيفا فإنه يبدو أن مذبحة يافا أثرت في خطط أحمد باشا الجزار فلم يغامر بفقدان حامية أخرى في حيفا وآثر سحب الحامية إلى عكا لتعزيز دفاعاتها ومقاومتها. ونظراً لأهمية موقع حيفا ورغبة الإنجليز في إشغال الفرنسيين وإضعاف مركزهم الحربي فقد حاولوا استردادها في عملية إنزال من الأسطول الإنجليزي الذي كان بقيادة سدني سميثSidney Smith في٢١مارس، ولكن الجنود البريطانيين تكبدوا خسائر فادحة من الحامية الصغيرة التي تركها نابليون في المدينة بعد زحفه على عكا (١٠٤).

اتخذ الجيش الفرنسي موقعه أمام عكا في ١٨ مارس. وفي الوقت نفسه نجح الأسطول البريطاني بقيادة السير سدني سميث في الاستيلاء على ست ناقلات فرنسية تحمل مدافع الحصار التي شحنها الفرنسيون من دمياط إلى عكا. وقد نجحت ثلاث سفن أخرى بالفرار (١٠٥). وقدرت الحملة العسكرية المدافعة عن المدينة بستةآلاف مقاتل معززة بنحو ٢٥-٣٠ مدفعاً (١٠٦).

وتحتل عكا موقعاً جغرافياً فريداً إذ يحيط البحر بثلثيها مما مكن الأسطول البريطاني من الدفاع عنها بحرياً بشكل أفضل. ويحيط بها سور قد بني من قبل ظاهر العمر سنة ١٧٥٠م. وقد رمم الجزار السور وزاد من تحصيناته في سنة ١٧٧٩م (١٠٧). وعلى الرغم من ذلك فقد وصفه الرحالة فولني سنة ١٧٨٣م بأن " سوره(سور ظاهر) الوضيع وخندقه الضيق وأبراجه القديمة عاجزة عن أي مقاومة صغيرة، وأن أربع قطع بحرية ميدانية تستطيع تدميره بقذيفتين. وهذا السور قد نصبت عليه المدافع الرديئة على ارتفاع خمسين قدماً. وهو يبقى واهناً فلا يوجد به خندق أو متاريس وسمكه لا يزيد عن ثلاثة أقدام. وبالنسبة لكل المواقع الآسيوية الحصينة فإن خطوط الدفاع، والطرق المغطاة، والاستحكامات والمتاريس، واستحكامات الشاطئ، وكل شيء يتعلق بالتحصينات الحديثة غير معروف تماماً. وأن ثلاثين سفينة حربية مسلحة تستطيع بدون صعوبة أن تقذف الساحل كله بالقنابل وتجعله خراباً" (١٠٨). والسؤال الذي يكمن هنا فيما إذا قد غُرر بنابليون من قبل الرحالة فولني الذي اتخذ نابليون من كتابه دليلاً له.

وبدأ الجيش الفرنسي استعداداته للهجوم عن طريق حفر الخنادق ونصب المدافع، وتم

ذلك بإشراف مهندس تحصينات الحملة كفاريللي الذي كان يعرف في مصر بأبي خشبة كونه يضع ساقاً خشبياً بدل ساقه التي فقدت قبل قدومه إلى مصر. وقد وصفه الجبرتي بالقول: "كان من دهاتهم وشياطينهم، وكان له معرفة بتدبير الحروب ومكايد القتال واقدام عند المصاف، مع ما ينضم لذلك من معرفة الأبنية وكيفية وضعها، وكيفية أخذ القلاع ومحاصرتها" (١٠٩). وقد تزامن ذلك مع قدوم سفن الأسطول البريطاني الذي أوكلت بريطانيا له مهمة تعقب الحملة الفرنسية، وطردها من الشرق بعد تحالف بريطانيا مع الدولة العثمانية لهذا الغرض. وعسكرت السفن قرب شاطئ عكا للدفاع عنها. وقدم مع سدني سميث ضابط فرنسي يدعى فليبو Phélipeaux، وكان زميل نابليون في الدراسة وانضم إلى بريطانيا بعد قيام الثورة الفرنسية التي ناصبها العداء (١١٠). وساهم فليبو في وضع خطة الدفاع عن عكا حيث اقترح على الجزار إقامة سور داخلي نظراً لضعف سورها الخارجي من أجل حصر المهاجمين بين السورين وقتلهم إذا ما اخترقوا السور الأول، واستخدم فليبو في ذلك البحارة الإنجليز كما سخر أيضاً سكان عكا، وعُزّزت دفاعات عكا بالمدافع وبضمنها مدافع الحصار التي استولى عليها من السفن الفرنسية قرب حيفا في ٢٣ مارس (١١١). وذكرت العديد من المصادر لاسيما المصادر الأوروبية عن نية الجزار للهرب، وأن سدني سميث وفليبو أقنعاه بالمقاومة والمكوث في عكا(١١٢). ولكن من المستبعد صحة ذلك نظراً لما عرف عن الجزار من قوة البأس والشكيمة، والأرجح أن سدني سميث هو مصدر هذه الروايات وأنه اتهم الجزار بالوهن والضعف ليعلي من شأنه ودوره الخاص، ولينسب لنفسه نصر عكا ويقلل من دور الجزار في ذلك.

وأمر نابليون بمهاجمة المدينة في ٢٨ مارس دون أن ينتظر وصول مدافع الحصار التي أرسل في طلبها من الإسكندرية بدلاً من المدافع التي استولى عليها البريطانيون. وسارت المعركة في سلسلة هجمات متكررة من قبل الجيش الفرنسي. ولكن المدافعين صدوها جميعاً وفوق ذلك قاموا بهجمات معاكسة. ولا نود هنا الخوض في تفاصيل تلك الهجمات المتبادلة، فقد حاول الفرنسيون عن طريق القذائف والقنابل والألغام إحداث ثغرات في السور والحصن الذي أطلق عليه الفرنسيون "الحصن اللعين" وذلك لدخول المدينة والاستيلاء عليها (١١٣).
ويبدو أن نابليون وكبار ضباط الجيش الفرنسي كانوا يعتقدون أن عكا ستسقط في أيديهم في الهجوم الأول كما فعلوا في يافا ولكن أمام المقاومة الشديدة ونقص الذخائر لديهم أوقف الجيش الفرنسي هجماته على المدينة واكتفي بحصارها (١١٤).

وحاول نابليون أثناء حصار عكا أن يستميل شيوخ الجليل وجبل لبنان إلى جانبه لتضييق الخناق على الجزار في عكا، ومنع وصول أي مساعدات عسكرية له إضافة إلى تأمين الجيش الفرنسي من أي هجمات من الشمال، والسعي لتوسيع المناطق الخاضعة لسيطرته. واستغل نابليون سخط هؤلاء على سياسة الجزار واستيائهم من حكمه وسطوته لاستمالتهم. فبعث بمراسلات إلى شيوخ الجليل وشيوخ المتاولة [١١٥] و الأمير بشير الشهابي الثاني أمير جبل لبنان و كذلك والي دمشق. ولكن الأمير الشهابي رفض ذلك [١١٦]. ومن الذين استجابوا له الشيخ عباس ابن ظاهر العمر، الذي كان ناقماً على الجزار لتنكيله بأسرته. فوعده نابليون بإعادة حكم الزيادنة على بلاد صفد بما فيها عكا بعد تخليصها من الجزار [١١٧]. كما قدم إليه شيوخ المتاولة، فأقرهم على المناطق الواقعة تحت حكمهم في بلاد بشارة [١١٨]. أما مشايخ الدروز فخافوا وهربوا إلى حلب وحوران [١١٩].

وأرسل نابليون الجنرال فيال Vial في ٤ نيسان على رأس أربعة آلاف جندي إلى صور، فاحتلها وأقام فيها حامية من مائتي شيعي من المتاولة، ثم قفل عائداً إلى عكا. [١٢٠] وعندما علم نابليون بقدوم جيش من جهة الشام لمحاربته ومساندة الجزار أرسل كلاً من الجنرال مورا و جينو Junot بجزء من الجيش إلى منطقة الجليل لمواجهتهم، وقطع الإمدادات من دمشق إلى عكا. ثم ألحق بهم فرقة أخرى بقيادة الجنرال كليبر قوة مساندة. وصد الجيش الفرنسي قوة عسكرية من رجال نابلس وعساكر دمشق ثم توجه جينو إلى صفد واحتلها بعد هزيمة حاميتها من المغاربة. واتجه جنوباً واستولى على طبرية دون مقاومة في ١٨ نيسان. والتقى كليبر في ١٦ إبريل بجيش عثماني بقيادة عبد الله باشا والي الشام ــ ويضم خليطاً من عساكر دمشق ــ ورجال نابلس، والمماليك بقيادة إبراهيم آغا، قرب تل طابور وقرية الفولة في مرج ابن عامر، وبالغت الروايات التاريخية في تعداده وذكرت أنه تراوح بين عشرين وثلاثين ألفاً [١٢١]. وكاد كليبر، الذي تتألف قواته من ٢٥٠٠ جندي، يهزم في المعركة لولا مسارعة نابليون إلى نجدته في ١٧ نيسان، وقصف الجيش الفرنسي بمدافعه الحديثة الحشود العسكرية العثمانية فأجبرها على الهرب بعد قتل الكثير منهم والاستيلاء على ذخائر ومؤن مهمة.

واغتنم نابليون فرصة تحقيق هذا النصر فبالغ في الحديث عنه لاستنهاض عزيمة جيشه التي بدأت تتدهور أمام صمود عكا. وأخذت باريس تتحدث عن عظمة هذا الانتصار. وعلق لوكروا على ذلك بقوله: "إن الجيوش الفرنساوية يبددون شمل الجيوش، ولكنهم لا يبددونها فلا تلبث أن تتألف ثانية في الغد لأن لها شيئاً من حياة القفر. وكلما اقترب العدو منها تفرقت

وتعود للظهور في مكان أبعد " (١٢٢). وهذا يشير بالطبع إلى طبيعة هذا القتال الذي لا يخرج عن كونه مناوشات متكررة فقط أكثر من كونه معارك عسكرية حقيقية. واتخذ القتال صفة الكر و الفر أمام تفوق أسلحة الجيش الفرنسي. وقد علق على ذلك أحد شيوخ البدو المشتركين في القتال " لا أقدر أن أسبح في نار جهنم بعصاة " (١٢٣). أما المؤرخ الشهابي فقد وصف بنادق الفرنسيين " كان الواحد يطلق الرصاص في الساعة ثلثمائة مرة " (١٢٤). وخلال المناوشات العسكرية في الجليل استولى الجيش الفرنسي على مناطق الناصرة وشفا عمرو، ونهب وحرق بعض القرى مثل الفولة ونورس ومدينة جنين لمناصبة أهالي تلك المناطق العداء له. وعلى الرغم من انتصارات الجيش الفرنسي في هذه المناوشات فإنها في المجمل ساهمت في استنزاف قوة الجيش الفرنسي وتشتيتها بفعل تناقص أعداد الجيش الفرنسي، وساعدت في النهاية في إلحاق الهزيمة بنابليون وجيشه. ولذلك فإن النصر في عكا يجب ألا ينسب إلى الجزار وحده أو إليه وإلى سدني سميث فقط بل أيضاً إلى شيوخ نابلس وفلاحيها الذين حاربوا بشجاعة لا تقل عن شجاعة الجزار من خلال هجماتهم المتكررة على أطراف الجيش الفرنسي ومؤخرته وتشتيت مجهوداته الحربية. ويمكن الاتفاق مع النمر ــــ مع بعض التحفظ على مبالغته ــــ الذي قال: " إن كبرياء نابليون وعدم كتابته عما أصاب ميمنة جيشه في وادي عزون، وعدم كتابة تاريخ جبل نابلس، طمس الحقيقة وأضاع جهود النابلسيين، فعد فشله باقتحام قلعة عكا أول مغلوبياته. والحقيقة أن معنوياته كسرت حول جبل نابلس في وادي عزون " الرشا " وفي وادي قاقون والمرج . . . ولم يرَ من النابلسيين أقل خضوع وقد اتجه نحو عكا خائر العزيمة فاقد الأمل " (١٢٥).

وعاد نابليون وغالبية الحملة بعد معركة طابور إلى عكا لمتابعة حصارها. فيما بقي كليبر وفرقته في الناصرة. كما عهد إلى مورا وفرقته بحماية جسر بنات يعقوب وحصني صفد وطبرية. واستمر كلاهما يصدان التجمعات العثمانية الموجودة في تلك المناطق حتى ١٠ مايو حيث انسحبا إلى عكا فيما بقي الجنرال مورا في الناصرة للمحافظة على صفد وطبرية (١٢٦).

د– الهزيمة أمام عكا والانسحاب

استمرت العمليات العسكرية المتبادلة بين الطرفين على أسوار عكا. واشترك الأسطول البريطاني في قصف مواقع الفرنسيين. وشارك الجزار بحمل السلاح والدفاع عن المدينة متقدماً

جنوده لرفع معنوياتهم (١٢٧). وقتل من الطرفين الكثير بينهم أبرز قادة الجيش الفرنسي مثل المهندس كفريللي، واستمرت الهجمات من قبل الفرنسيين طوال شهر أبريل مستخدمين الألغام التي عول عليها نابليون كثيراً فيما أضاء الجزار الأسوار بالمصابيح خوفاً من المباغتة (١٢٨). واشتدت وتيرة الهجمات الفرنسية مع بداية شهر مايو من أجل حسم المعركة ولكن دون فائدة وذلك على الرغم من الاستعانة بعدد من مدافع الحصار التي استقدمت لاحقاً من مصر. وفي المقابل تعززت دفاعات عكا بوصول نجدة بحرية عثمانية قوامها ثلاثون مركباً تحمل عسكراً (نحو عشرة آلاف مقاتل) وعتاداً حربياً (١٢٩).

وشهدت الأيام من٧ إلى ١٢ مايو آخر هجمات الجيش الفرنسي لاحتلال المدينة مستغلاً إحداثه ثغرة في سور الحصن، فنفذت منها قوة فرنسية بقيادة لان و رامبو Rambaud، من أشهر قادة المعركة، ولكنهم وقعوا في المصيدة التي خُططت لهم بين سوريّ المدينة (السور الخارجي الأساسي والسور الداخلي الذي يمثل حماية للأول والذي اقترح فليبو الفرنسي الموالي لبريطانيا بناءه)، فقتلهما رجال الجزار وسط زغاريد النساء على الأسطح. كما أصيب الجنرال بون بجراح قاتلة من جراء الزيت والقطران والحجارة التي قذف بها. وعند ذلك تراجعت عزيمة نابليون وأدرك وجوب التقهقر عن عكا بعد أن تكبد خسائر فادحة (١٣٠). وقبل انسحاب الجيش الفرنسي من أمام عكا صب نابليون جام غضبه عليها بقصفها ولاسيما قصر الجزار بالمدافع لأربعة أيام متتالية (١٢-١٥ مايو) من أجل إلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر بالمدينة وتغطية انسحاب جيشه. لاسيما وأنه سيضطر لترك مدفعيته الثقيلة وذخيرته، وحتى يستطيع أن يعلن أمام الملأ أنه دمر عكا (١٣١).

وقد كتب نابليون في ١٠ مارس إلى حكومة الإدارة في فرنسا بأن احتلال عكا لا يستحق كل هذه الخسائر، وأنه قرر الانسحاب إلى مصر (١٣٢). وبعث نابليون في ١٦ مايو رسالة إلى ديوان مصر يخبره بمجيئه وقال فيها " وجائب (وجالب) معي جملة محابيس بكثرة وبيارق، ومحقت سرايا الجزار وسور عكا بالقنبر، وهدمت البلد ما أبقيت فيها حجراً على حجر، وجميع سكانها انهزموا من البلد إلى البحر والجزار مجروح " (١٣٣). وهكذا يبدو تغطية نابليون لفشل حملته. ونظراً لهذا الفشل تمادى نابليون وجيشه في الانتقام أثناء انسحابهم إلى مصر الذي بدأ من أمام عكا في ٢٠ أيار. وألحقوا تدميراً وحرقاً في المدن والقرى التي مروا بها. وترك نابليون لجنوده العنان في السلب والنهب (١٣٤). وأرسل نابليون إلى الحامية الفرنسية المرابطة على نهر الأردن بقيادة جينو بإتلاف أسلحتها الثقيلة في طبرية والانسحاب لملاقاة

باقي الحملة في الطريق بين عكا ويافا (١٣٥). وتعرض الجيش الفرنسي أثناء ذلك إلى ملاحقة الفلاحين النابلسيين والبدو الذين يعرفون المنطقة جيداً. فهاجموا مؤخرة الجيش والطوابير المتخلفة من اليسار وأعملوا فيها القتل وقنص الجنود، كما شارك الأسطول البريطاني في قصف الجيش الفرنسي من البحر. وواجه نابليون إضافة إلى ذلك مشقة نقل الجرحى والمرضى، فنقل بعضهم بست سفن صغيرة إلى مصر فيما واصل إرسال الباقين ماشين أو راكبين أو محمولين كما تقتضي حالتهم. وأمر قادة الجيش و الجنود بالسير على الأقدام لتوفير الركاب للجرحى و المرضى. و ذكر معظم المؤرخين أن نابليون قام بإصدار أمره إلى طبيب الحملة لإعطاء جرعة من الأفيون لمجموعة من المصابين بالطاعون والذين لا أمل في شفائهم، و ذلك من أجل التعجيل بوفاتهم و منعا لوقوعهم في يد العثمانيين (١٣٦). ولكن نابليون أنكر ذلك وكتب في مذكراته التي كتبها في منفاه (سانت هيلانة) "أنه لم يأمر بسم المرضى، ولكنه لو وجد نفسه مثل واحد من هؤلاء لفضل أن تجرع السم" (١٣٧). وعلى الرغم من إنكار نابليون ذلك و عدم تأكيد الروايات لما نفذ من ذلك فإن هذه القضية ظلت مثارا للجدل وفى ذلك يقول هيرولد: "من الصعب أن نفهم لم أثارت هذه المسالة كل هذا الجدل المشبوب: فحتى لو كان بونابرت قد أمر بقتل بضع عشرات من مرضى الطاعون الميئوس من شفائهم رحمة بهم، فلا ريب أن عملاً كهذا يمكن تبريره أكثر من ذبح آلاف الأسرى في يافا" (١٣٨).

وترك الجيش الفرنسي يافا في ٢٨ مايو بعد أن فرض غرامة قدرها ١٠٧,١٧٤ ليرات (ذهبية كما يبدو) على أهلها، حصل منها نحو ٦٠٨,٨٥ فقط وأخذ العديد من الرهائن حتى يُدفع بقية المبلغ. وهدم تحصيناتها، وحرق المراكب في مينائها (١٣٩). وما أن وصل الجيش المنهزم إلى غزة في ٣٠ مايو حتى دمر ما بقي من سورها كما هدموا جامع البيمارستان، وجامع الجاولي، ومدرسة قايتباي، والمدرسة الكمالية، وجامع القلعة، وزاوية الشيخ محمد شمس الدين أبي العزم ملحقين الخراب والدمار في وسط المدينة (١٤٠). وفرض على أهلها غرامة مالية وترك فيها عدداً من المرضى والمصابين بالطاعون في عهدة أعيان المدينة بعد أخذ العديد من الرهائن (١٤١). وبينما كان الجيش يقترب في انسحابه من خان يونس في الأول من حزيران حتى هاجمته قبائل "الترابين" وانقضت على قوافل تموينه (١٤٢).

وحاول نابليون أن يظهر بمظهر المنتصر فخطب في جنوده مشيداً ببطولاتهم ومعلناً لهم تحقيق غايته من الحملة (١٤٣). وطلب نابليون من الأعيان في مصر استقباله، ودخل مصر في موكب بهيج في ١٤ حزيران ١٧٩٩م معلناً انتصاره. وعلق الجبرتي على ذلك بقوله: "

تغيرت ألوان العسكر القادمين، واصفرت أبدانهم، وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب. وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً حرباً مستقيماً ليلاً ونهاراً، وأبلى احمد باشا وعسكره بلاءً حسناً وشهد لهم الخصم" (١٤٤). وقد اصطحب نابليون معه إلى مصر عدداً من أبناء المدن الفلسطينية ليزج بهم في سجن القلعة بمصر بحجة تسديد ما عليهم من ضرائب على الرغم من وجود الفرنسيين لنحو أربعة أشهر في فلسطين ولم يفرج عنهم إلا في نهاية شهر أغسطس ١٧٩٩م (١٤٥).

وقبل إسدال الستار على حصار عكا يجدر التوقف عند ذكر بعض المؤرخين عن استثارة نابليون لليهود أمام عكا، وإصداره أثناء المراحل الأولى من حصاره للمدينة نداءً دعا فيه يهود آسيا وأفريقيا لتأييده والانضمام إليه مقابل وعد قطعه على نفسه باسترجاع القدس القديمة وممتلكاتها المجيدة. وبذلك يكون نابليون إن صحت الرواية هو أول من أعطي اليهود وعداً بوطن قومي لهم في فلسطين وذلك قبل وعد بلفور بـ١١٨ عاماً. ولكن مشروع نابليون فشل بسبب فشله في احتلال عكا، وكون اليهود في بلاد الشام والخارج كانوا أضعف من الاستجابة لذلك النداء وتقديم الدعم له (١٤٦).

و تختلف اجتهادات المؤرخين حول أسباب هزيمة نابليون وكل منهم يعطي طرفي المقاومة للحملة دوراً أكبر من الآخر. ونقصد هنا دور كل من أحمد باشا الجزار وحاميته وسدني سميث وبحارته. ويعطي معظمهم الدور الأكبر للإنجليز سواء بدفاعهم عن عكا بالعتاد والرجال أو بالخطة العسكرية للدفاع عن المدينة وفي ذلك يقول الشهابي: "لولا الإنكليز لم يثبت الجزار في ذلك الحصار إلى ذلك الوقت" (١٤٧). كما ذُكر أن قيادة الدفاع عن المدينة وإدارته كانت في أيد أوروبية لا تقل كفاءة وخبرة وعلماً عما لدى نابليون. وروي عن كليبر الذي انتقد خطة الهجوم وأسلوب الحصار الذي اتبعه نابليون قائلاً: "هاجمنا عكا على الطريقة التركية بينما كان الدفاع عنها على الطريقة الفرنساوية". (١٤٨) وذلك في إشارة منه إلى أن فليبو ذا الأصل الفرنسي هو الذي وضع للجزار خطة الدفاع. كما أورد نابليون في منشور آخر، يختلف عما نشره الديوان علناً في مصر، خمسة عشر سبباً برر فيها عودته من الشام وذكر منها الطاعون، والإنجليز، والأتراك، وسوء أخبار فرنسا، وموت كفرللي، والجزار، ومراد، وتيبو... الخ (١٤٩).

والحقيقة أن عوامل عدة تضافرت وتفاوتت في أهميتها وتأثيرها أسهمت في هزيمة الجيش الفرنسي . وتتمثل هذه العوامل في الموقع الفريد لعكا وزاوية التقائه بالبحر اكسب المدينة مزايا دفاعية ، إضافة إلى مناعة أسوارها ، واستبسال قائدها الجزار وحاميته ، والمساعدة الإنجليزية بجوانبها كافة وبضمنها خطة الدفاع التي ساهم فليبو في وضعها . ومن جملة العوامل أيضاً تفشي مرض الطاعون بين جنود الحملة الفرنسية . كما كان لمناوشات رجال جبل نابلس والمماليك والعربان وجند دمشق دور مهم في تشتيت قوة الجيش الفرنسي .

خامساً: نتائج الحملة الفرنسية على بلاد الشام وتأثيرها

تركت الحملة الفرنسية العديد من النتائج على طرفي النزاع ، ففي الجانب الفرنسي : - فشلت الحملة فشلاً ذريعا ، ولم يستطع نابليون تحقيق أهدافه الواقعية أو مشروعاته وأحلامه الطموحة . وقد قال نابليون لاحقا : " حبة رمل واحدة حالت دون أمجادي ، ولو أن عكا فتحت أمامي أبوابها لأجزم أنني كنت قد بدلت وجه العالم ، وأوقفت التاريخ لأسيره وفق إرادتي " (١٥٠) . وسواء قال نابليون ذلك أم لا وسواء قال ذلك في لحظة يقظة وواقعية أم لحظة طموح وأحلام فقد شكلت هزيمته في الشام بداية النهاية لحملته على الشرق .

وقد نظر بعض المؤرخين الأوروبيين إلى الحملة على فلسطين بأنها حققت أهدافها المعلنة مثل القضاء على الجيش العثماني في تل طابور قبل أن يهاجم مصر (١٥١) . وهذا يتفق مع الرواية الرسمية الفرنسية التي بثها نابليون عند عودته إلى مصر . أما على الصعيد المحلي فعلى الرغم من أن الحملة على مصر قد أضعفت من سلطة المماليك فإنها لم تترك الأثر نفسه على فلسطين وبلاد الشام ، فقد وطدت سلطة الجزار الذي بلغ أوج مجده سنه ١٧٩٩م على أثر انتصاره على نابليون ، وبذلك اكتسب مجداً وشهرة محلية وعالمية (١٥٢) . وقد شاركت مدينة عكا أحمد باشا الجزار هذا المجد والشهرة ، فاكتسبت مكانة رفيعة ، واشتهرت في أوروبا بأنها قلعة منيعة . (١٥٣) ونظراً للمساعدة التي قدمها الشيخ يوسف جرار للجزار وجهوده في المقاومة الشعبية فقد قدمه الأخير على جميع الشيوخ ووسع من نفوذه وسلطانه (١٥٤) . وقد ساهم فشل الحملة الفرنسية على الشام في تشجيع الدولة العثمانية على استرداد مصر فأصدرت الأوامر إلى الجزار بملاحقة الفرنسيين وطردهم من مصر لكنه لم يلب ذلك وانشغل بإصلاح ما ألحقته الحملة من أضرار في عاصمته وما يحيط بها . فكلفت الدولة الصدر الأعظم يوسف باشا بالزحف على رأس الجيش العثماني إلى حدود مصر لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم

منها . وبقي الجيش معسكراً على الحدود في العريش حتى سنة ١٨٠١م حيث اتفق مع الفرنسيين على انسحابهم من مصر . فتقدم الصدر الأعظم إلى مصر وأعاد السلطة العثمانية عليها .

وقد تركت الحملة الفرنسية على الشام تأثيراً على المدى البعيد إذ فتحت أعين بريطانيا على أهمية مصر والشام وخاصة فلسطين . وضرورة منع أي قوة أوروبية من الاستيلاء عليهما لما في ذلك من خطورة على تجارة بريطانيا وعلى خطوط مواصلاتها إلى مستعمراتها ، وأخذت بريطانيا تتحين الفرصة للسيطرة على الشرق (١٥٥) .

أما بالنسبة للخسائر البشرية فقد قدرت الوفيات في صفوف الجيش الفرنسي ب٤٤٠٠ ، أما الجرحى والمرضى فوصل عددهم إلى نحو ٢١٠٥ وبذلك يصل مجموع الإصابات بين قتيل وجريح إلى أكثر من نصف عساكر الحملة (١٥٦) . وعلى الرغم من توفر بعض الإحصاءات عن خسائر الفرنسيين البشرية فإنه لا تتوفر إحصاءات عن الخسائر البشرية المحلية والتي بالطبع تزيد كثيراً عن الخسائر الفرنسية ويكفي أن نتذكر هنا الخسائر البشرية في مدينة يافا وحدها .

وقد تركت الحملة وراءها دماراً في المدن الفلسطينية التي طالتها أيدي الجيش الفرنسي في ذهابه وإيابه لاسيما وان الجيش الفرنسي اتبع سياسة الأرض المحروقة أثناء انسحابه إلى مصر . وما صودر من الأهالي من جمال وحمير وبغال لاستخدامها في نقل مصابيهم ومرضاهم ومعداتهم إضافة إلى ما صودر من المؤن لتزويد الجيش الفرنسي . (١٥٧) وبالتالي ساهم ذلك في سوء الأوضاع الاقتصادية وتفاقمت الأوضاع سوءاً نتيجة توقف التجارة مع مصر وفرنسا وانتشار الغلاء والانخفاض في قيمة العملة وعانى السكان أيضاً بسبب عسكرة الجيش العثماني في العريش بعد انسحاب الحملة الفرنسية عن الشام وما تبع ذلك من ازدياد الضرائب والذخائر المفروضة عليهم .

وعلى الرغم من الدور المهم الذي لعبته الحملة الفرنسية على مصر في تحديث مصر وإضعاف قوة المماليك وبالتالي على موازين القوى المحلية ، وفتحها للتأثير الأوروبي فإن الحملة على الشام لم تترك هذا الأثر في فلسطين التي كانت فقط مسرحاً للعمليات العسكرية . ولم تترك التأثير نفسه في الجوانب السياسية والإدارية والثقافية والقضائية وغيرها وذلك لقصر فترة احتلالها التي بلغت نحو أربعة أشهر . كما لم تساهم في إحداث تغيير مهم في موازين القوى السياسية والعسكرية في بلاد الشام وإن أدت إلى تعزيز مكانة الجزار الذي أكمل حكمه حتى وفاته سنة ١٨٠٤م .

هوامش الدراسة:

1-Watson: pp. 17-18

٢- هيرولد: ص ١٣؛ أنظر أيضاً أنيس: ص.129

٣- جرار: أسرار حملة نابليون على مصر والشام، ص ١٣ .

٤- هيرولد: ص٢١؛ لورنس وآخرون: ص ٣٤ .

٥- هيرولد: ص٢١ . أنظر نص المذكرة السرية التي قدمها تاليران إلى حكومة الإدارة في باريس بتاريخ ١٣ فبراير ١٧٩٨م لدى إسماعيل: ج١، ص ١٩٢ . كذلك أنظر حول أهداف نابليون، سعيد: ص ١٠٦-١٠٧ .

٦- عمر: ص ٢٣٣ .

٧- فشر: ص ٦٤؛ لورنس وآخرون: ص ٣٣ .

٨- عمر: ص٢٣٣ .

٩-هيرولد: ص١٠ .

١٠- وقد شكك قسطنطين بازيلي في صحة هذا المشروع، " وأن نابليون عوضاً عن دحض النيات التي عزيت إليه، حاول أن يسبغ عليها وزناً أكبر، ولكن من السهل تفسير ذلك برغبته في أن يبقي الانكليز في قلق على ممتلكاتهم الهندية، وأن يحيط ذاته في الوقت نفسه بشيء عجيب في أعين شعبه، ويلهب مخيلة الغرب بشرارة استمدها بمهارة من الشرق" . انظر بازيلي: ص ٨٠-٨١ .

١١- هيرولد: ص ٣٦٣ . وتيبو هو تيبو صاحب سلطان سلطنة ميسور في شبه القارة الهندية والذي كان يعارض الوجود البريطاني في المنطقة . ولذلك يبدو أنه أقام اتصالات مع فرنسا التي كانت في حالة عداء وصراع مع بريطانيا . وقد رأت بريطانيا في تيبو صاحب وزمان شاه، شاه أفغانستان، كحليفين ليس فقط ممكنين بل وفعليين لفرنسا التي كان يمكنها من ثم تطويق القوة الإنجليزية في الهند . ويبدو أن بريطانيا أخذت مشروع نابليون بالزحف على الهند والتحالف مع تيبو صاحب ضدها على محمل الجد ولذلك أرسلت هارفورد جونز إلى بغداد، وكلفته بأن ينظم على المستوى المحلي المقاومة ضد زحف فرنسي محتمل . وأن تطلب من السلطان العثماني سليم الثالث بأن يراسل السلطان تيبو صاحب لثنيه عن التحالف مع فرنسا وبأن يتوصل إلى تفاهم مع الإنجليز . ثم قامت قوة بريطانية بمهاجمة سلطنة ميسور . وبعد معركة قصيرة يلقى تيبو صاحب حتفه في سيرينجاباتام في ٤مايو ١٧٩٩ . وسقطت مملكته إثر ذلك تحت النفوذ الإنجليزي . ويبدو أن تزامن مهاجمة بريطانيا لتيبو صاحب مع الحملة الفرنسية على بلاد الشام يشكل برهاناً إضافياً على أن بريطانيا كانت تأخذ مأخذ الجد خطر زحف بري على الهند . (انظر لورنس وآخرون، الحملة الفرنسية في مصر، ص ٣٢٨-٣٣١) وقد ذكر الجبرتي اسم تيبو في منشور نابليون السري حول مبررات هزيمته . أنظر الجبرتي: ج٢، ص ٢٨٩ .

١٢- لودفيج: ص ١٠٣ .

١٣- المبيض: ص ٣٢٩ .

١٤- لورنس وآخرون: ص ٣٤٠-٣٤١ .

١٥-هيرولد: ص ٣٦٣.
١٦- المرجع السابق نفسه و الصفحة نفسها.
١٧- توما: ص ٦١.
١٨- الجبرتي: ج٢، ص٢٥٥.
١٩- منير وعادل إسماعيل: ج١، ص ٢٠٠, ٢٠٩.
٢٠- منير وعادل إسماعيل: ج١، ص ٢٠٩؛ هنري لورنس وآخرون: ص ٣٢٩.
٢١- مناع: تاريخ فلسطين، ص ٩٤؛ نوفل: ص ٢٢٤.
٢٢- نوفل: ص ٢٢٤. الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٦. لمزيد من المعلومات حول أصل أحمد باشا الجزار وحياته أنظر الشهابي: تاريخ أحمد باشا الجزار.
٢٣- الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٦.
٢٤- الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص٨٨٣-٨٨٥.
٢٥- لوكروا: ص ١٨٤؛ الترك: ص ٦٤.
٢٦- شكري: ص ١١٨؛ المبيض: ص٣٢٧ -٣٢٨.
٢٧- .Watson: p. 20؛ الدباغ: ج٢، ص ٩٠. لقد حكم إبراهيم بك مصر مع مراد بك بعد وفاة محمد بك أبو الدهب سنة ١٧٧٥، وظلا يحكمان مصر حتى قدوم الحملة الفرنسية على مصر وتعرضهما للهزيمة. فهرب إبراهيم بك إلى فلسطين. وقد عاد إبراهيم بك إلى مصر بعد خروج الفرنسيين منها. لمزيد من التفاصيل أنظر الجبرتي: ج٢.
٢٨- الجبرتي: ج٢، ص ٢٥١.
٢٩- الترك: ٦٤.
٣٠- نوفل: ص ٢٢٤.
٣١- هيرولد: ص ٣٦٠؛ الطباع: ج١، ص ٢٨٩؛ لوتسكي: ص ٥٢.
٣٢- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص ٧٢٠.
٣٣- الجبرتي: ج٢، ص ٢٥١-٢٥٢.
٣٤- المصدر نفسه، ص ٢٥١.
٣٥- حول مزيد من التفاصيل عن باقي أسماء علماء الدين المسلمين انظر الجبرتي: ج٢، ص ٢٤٨, ٢٥١.
٣٦- الترك: ٦٥.
٣٧- .Watson: p. 22
٣٨- لوكروا: ص٣٦٤؛ الترك: ص ٦٦.
٣٩- قنابر: مفردها قنبرة وهي ما يقذفه المدفع بواسطة البارود، واللفظ متداول في العصر العثماني، يقابله اليوم لفظ قنبلة. ووردت في بعض المصادر: قمبرة، والعاملون بها قمبرجية. انظر الخطيب: ص٣٥٤.
٤٠- الجبرتي: ج٢، ص ٢٥٣؛ الترك: ص ٦٧؛ كرد علي: ج٣، ص ١٢؛ نوفل: ص ٢٢٥.

٤١- لورنس وآخرون: ص ٣٤٢-٣٤٣.
٤٢- لوكروا: ص ١٨١.
٤٣- انظر رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص ٧٢١.
٤٤-هيرولد: ص ٣٧٠.
٤٥- هيرولد: ص ٣٧٠؛ Watson: p . ٢٤
٤٦- نوفل: ص ٢٢٦. المبيض: ص ٢٢٨؛ سكيك: ج٣: ص ١٠١.
٤٧- لورنس وآخرون، ص ٣٤٣.
٤٨- بقسماط: لفظ تركي دخل العربية خلال فترة التمازج الثقافي، وهو ضرب من الخبز كان معروفاً في بداية العهد الأيوبي، ولا يزال أهل الجهات الشمالية من بلاد الشام والعراق يعرفونه بهذا الاسم، وهو عبارة عن قطع من الخبز الجاف يستعمل أثناء الطوارئ والحروب حيث لا يتوفر عندهم الخبز الطازج. اتظر الخطيب: ص ٨٢-٨٣.
٤٩- الترك: ص ٦٩. وقد ذكر الجبرتي أيضاُ إحصائية قريبة من ذلك أنظر الجبرتي: ج٢، ص٢٥٦.
٥٠- سكيك: ج٣: ص ١٠٢.
٥١- الجبرتي: ج٢، ص ٢٥٥.
٥٢- المصدر نفسه والصفحة نفسها
٥٣- الجبرتي: ج٢، ص ٢٥٩.
٥٤- هيرولد: ص ٣٧١؛ البرغوثي و طوطح: ص ١٩٧.
٥٥- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص ٧٢١.
٥٦- العارف: ص ٢٧٢.
٥٧- البرغوثي و طوطح: ص ١٩٧؛ انظر أيضاً بازيلي: ص ٧٥.
٥٨- البرغوثي و طوطح: ص ١٩٧؛ العارف: ص٢٧٢-٢٧٣.
٥٩- مناع: تاريخ فلسطين، ص ٩٤.
٦٠- طوبجية: الطوب لفظ تركي أصله: توب، معناه: مدفع. والطوبجية هم رماة المدفع. وهي وحدة عسكرية في الجيش العثماني مهمتها أثناء الحرب تهديم قلاع العدو بالمدفعية، وتدمير قواته وتحصيناته. و يرأس الوحدة ضابط يعرف باسم: طوبجي باشي أو طوبشي باشي ومعناه: قائد المدفعية. انظر الخطيب: ص ٣٠٩.
٦١- عربجية: وحدة عسكرية من وحدات الجيش العثماني، يعمل أفرادها في سلاح العربات. مهمتهم جر المدافع المتحركة، واحدهم: عربجي، وهو بحسب تشكيلات الجيش العثماني: سائق العربة. يعتبر أفراد العربجية بمثابة مساعدين لعناصر الطوبجية- المدفعية-. ويرأسهم قائد يعرف باسم: عربجي باشي. انظر الخطيب: ص ٣١٩-٣٢٠.
٦٢- المدني: ص ٤٣-٤٤.
٦٣- العارف: ص٢٧٢-٢٧٣.

٦٤- الطباع : ج١ ، ص ٢٩٢ .
٦٥- الشهابي : تاريخ الأمير ، ج٢ ، ص ٨٨٧ .
٦٦- الترك : ص ٦٩ .
٦٧- مناع : تاريخ فلسطين، ص ٩٥؛ Watson: p . ٢٤ . ويرجح صحة هذا الرقم ما أورده الجبرتي من تعداد ما تم قتله من رجال الحامية بأكثر من أربعة آلاف . أنظر الجبرتي : ج٢ ، ص ٢٦٢ .
٦٨- الجبرتي : ج٢ ، ص ٢٦٠ .
٦٩- الجبرتي : ج٢ ، ص ٢٦٠-٢٦١ .
٧٠- الجبرتي : ج٢ ، ص٢٦١ ؛ هيرولد : ص ٣٧٢ .
٧١- الترك : ص ٧١؛ لوكروا : ص ١٤٩ .
٧٢- هيرولد : ص ٣٧٢ .
٧٣- لوكروا : ص ١٩٥ .
٧٤- الترك : ص ٧٠ .
٧٥- الشهابي : تاريخ الأمير ، ج٢ ، ص ٨٨٧ .
٧٦- الترك : ص ٧٠؛ الجبرتي : ج٢ ، ص ٢٦٢ , ٢٦٦ .
٧٧- سناكي : مفردها سنك وهي كلمة تركية تعني حجر أو صخرة صلبة أو حادة . انظر Bahdar Alkim and others: Redhous, Turkish, Ottoman, English Dictionary, Istanbul, 1999, p. 999) وهي تعني هنا آلة حادة أو حربة وجمعها حراب .
٧٨- الجبرتي : ج٢ ، ص ٢٦٢ .
٧٩- العارف : ص ٢٧٢ .
٨٠- لوكروا : ص ١٩٧ ؛ الطباع : ج١ ، ص ٢٩١ .
٨١- الترك : ص ٧٠؛ الجبرتي : ج٢ ، ص ٢٦٢ ؛ نوفل : ص ٢٢٦ .
٨٢- لورنس وآخرون : ص ٣٤٤ .
٨٣- هيرولد : ص ٣٧٦؛ لورنس وآخرون : ص ٣٤٤ . ويبدو أن نابليون قد اتبع في قتل حامية يافا ما اتبعه محمد بك أبو الذهب في سنة ١٧٧٥م . فقد أدى قيامه بمذبحة يافا آنذاك إلى أضعاف معنوية ظاهر العمر وقواته في عكا وهربهم من المدينة أمام تقدم القوات المصرية . وقد تم ذكر أحداث هذه المذبحة ونتائجها من قبل الرحالة الفرنسي فولني الذي ذكر " وتواثب الجيش (المصري) زرافات وأعمل السلب والتقتيل، فحصد السيف النساء والأطفال والشيوخ، وأبت وحشية محمد (محمد بك أبو الذهب) ونذالته إلا أن يرفع نصباً للنصر، فأمر أن يشاد له هرم من رؤوس القتلى المناكيد، وقد جاوز عددهم ألفاً ومائتي نسمة . وكان من نتيجة هذه الكارثة التي حلت بالمدينة . . . أن عم الذعر سائر البلاد، فانهزم الشيخ عمر الضاهر (ضاهر العمر) من عكا" . انظر ٧٩- Volney: II, p. ١٢٧ . انظر النص المقتبس في الجزء الأول من نفس الكتاب والمترجم للعربية ص ١٠٠-١٠١ . وقد أعتمد نابليون كتاب رحلته كدليل له في غزوه لمصر وبلاد الشام . فقال أدوارد سعيد لأسباب تبني بونابرت لأراء فولني : "

كانت تقدير فولني تقدير داهية متمرس، ويصعب جداً أن يخّطأ؛ إذ كان واضحاً لنابليون، كما سيكون لكل من يقرأ فولني، أن رحلته ونظراته كانا نصين ناجعين لاستخدام أي أوروبي يود أن يحظى بالنجاح في الشرق . . . وقد فهم نابليون فولني فهماً حرفياً تقريباً" . ولذلك أراد نابليون أن تترك مذبحة يافا نفس التأثير الذي تركته مذبحة يافا سنة ١٧٧٥م. انظر سعيد: ص ١٠٧-١٠٨ . ولكن التأثير في هذه المرة جاء مغايراً إذ ساعد ذلك في إصرار الجزار وحامية عكا على المقاومة خوفاً من أن يلقوا نفس مصير حامية يافا، وأنه ليس أمامهم إلا النصر أو القتل.

٨٤- مناع: تاريخ فلسطين، ص ٩٦ .

٨٥- مناع: تاريخ فلسطين، ٩٦ .

٨٦-هيرولد: ص ٣٧٨-٣٧٩ .

٨٧- الجبرتي: ج٢، ص ٢٦٣ .

٨٨- الحويك: ج١، ص ١٣١ .

٨٩- لوكروا: ص ١٩٩ . ولفظة دمامل: مفردها دمل وهي بثور جلدية متقرحة .

٩٠-هيرولد: ص ٣٨١ .

٩١- هيرولد: ص ٣٨١ .

٩٢- السباهية: وهي وحدة أو ألاي الفرسان في الجيش العثماني. ويطلق على الفرد الملتحق بها سباهي. ويكون للألاي أمير بلقب بك يقال له ألاي بك أو أمير الألاي (ميرألاي). لمزيد من المعلومات عن السباهية انظر النمر: ج٢، ص ١٨٧-١٩١)

٩٣- النمر: ج١، ص ٢٠٩-٢١٠، ٢١٣-٢١٥ .

٩٤- داثرات: من دثر وتعني البلى والتهدم. انظر مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة (دثر)

٩٥- نوضوا: من نَاضَ- نَوَضَ وتعني تحرك وذهب وهي في البيت الشعري هنا بمعنى تحركوا وانهضوا. انظر مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة (نوض).

٩٦- بنات: بنات الدهر أو الحرب شدائده. وكأن الشاعر يقصد بأن على أهل نابلس أن يكونوا أشداء في مواجهة الأعداء. وربما يريد أن يذكر أن على قومه أن يكونوا في مواجهة الأعداء متراصي الصفوف. ومن المحتمل أيضاً أن الشاعر يقصد بكلمة بنات أن الأعداء الذين وصفهم بأنهم أشرار ليسوا ممن يخيف المسلمين، فهم كالبنات أو الحريم اللواتي لا يحسب لهن في الحرب حساباً.

٩٧- المصدر نفسه، ص ٢١٠-٢١١ .

٩٨- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٩٩- المصدر نفسه، ص٢١٧-٢١٨ .

١٠٠- النمر: ص٢١٧-٢١٩ .

١٠١- الترك: ص ٧٤ . لمزيد من التفاصيل انظر أيضاً النمر: ، ج١ ، ص٢٢٠؛ لوكروا: ص ٢٠٢ .

١٠٢- الترك: ص ٧٤؛ كارمل: ص ٩٥ .

١٠٣- لوكروا: ص ٢٠٣ .

١٠٤- كرمل: ص ٩٥. وسيدني سميث بريطاني ولد في سنة ١٧٦٤م، ودخل البحرية البريطانية في سنة ١٧٧٧. وبفضل حمايات عائلية راسخة حقق صعوداً سريعاً. وتولى مهام بحرية عسكرية عديدة حتى صل إلى قيادة سفن الأسطول البريطاني ضد الحملة الفرنسية. وقد حصل بفعل دعم أخيه سبنسر سميث، السفير البريطاني في القسطنطينية، على قيادة العمليات العثمانية ضد نابليون متخذاً من جزيرة رودس قاعدة الأنطلاق. وفي ١٧ فبراير ١٧٩٩م غادر القسطنطينية متجهاً إلى شرقي البحر المتوسط، وذلك متزامناً مع بدء زحف الجيش الفرنسي على فلسطين. لمزيد من المعلومات حول سيدني سميث أنظر هنري لورنس وآخرون، الحملة الفرنسية في مصر، ص٣٣١-٣٣٣.

١٠٥- هيرولد: ص ٣٨٧.

١٠٦- رافق: الموسوعة الفلسطينية: ٧٢٣.

١٠٧- صافي: ص ١٨٥-١٨٧.

١٠٨- Volney: Travel: II, pp. 97-98

١٠٩- الجبرتي: ج٢، ص ٢٧٤. حول كفريللي أنظر أيضاً الترك: ص ٧٩-٨٠.

١١٠- هيرولد: ص ٣٨٤.

١١١- لوكروا: ص ٢٠٨؛ لورنس وآخرون: ص٣٤٨.

١١٢- هيرولد: ص ٣٨٥؛ الترك: ص ٧٥؛ الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٨. للحقيقة هناك بعض الدراسات الأوروبية التي اتصفت بالموضوعية وأبرزت دور الجزار في النصر. ودحضت الروايات عن جبن الجزار ونيته للهرب. أنظر مثلاً لورنس وآخرون: ص ٣٤٧؛ لوكروا: ص ٢٥٨.

١١٣- هيرولد: ص ٢٩٥.

١١٤- رافق: الموسوعة الفلسطينية: ج٢، ص ٧٢٣.

١١٥- المتاولة: هم طائفة من الشيعة تشغل المنطقة المعروفة بجبل عامل أو جبل بني عاملة الواقع اليوم في جنوب لبنان. وهم ينسبون إلى عامل بن سبأ. وقد أطلق عليهم هذا اللفظ في نهاية القرن السابع عشر الميلادي. حول مزيد من التفاصيل عن المتاولة أنظر رضا: بنو عاملة، ص ٢١٨-٢٢١؛ أنظر لنفس المؤلف أيضاً، المتاولة أو الشيعة، ص ٤٢٥-٤٣٣.

١١٦- الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٧. لمزيد من التفاصيل حول رسالة بونابرت إلى الجزار أنظر اسماعيل: ج١، ص ٢٠٣-٢٠٤.

١١٧- الترك: ص ٧٦؛ الصباغ: ص ١٥٦، ١٦٣. ورد لدى الشهابي ونوفل وبازيلي بأن ابن ظاهر الذي قدم إلى نابليون هو صالح، والأقرب إلى الصحة هو عباس. أنظر الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٧؛ نوفل: ص ٢٢٨؛ بازيلي: ص ٧٧. لمزيد من التفاصيل عن عباس الظاهر أنظر ترجمته لدى مناع: أعلام فلسطين، ص ٢٦٢.

١١٨- بلاد بشارة: وهي جنوب لبنان حالياً، وعرفت ببلاد بشارة نسبة إلى أحد حكامها في فترة صلاح الدين الأيوبي. وكانت تشكل في فترة الدراسة إحدى نواحي ولاية صيدا، وكان يطلق عليها أيضاً جبل عامل. وتنقسم بلاد بشارة إلي قسمين: بشارة الشمالية ويحدها شمالاً نهر الأولي ومن الجنوب

نهر الليطاني، وبلاد بشارة الجنوبية التي تبدأ من نهر الليطاني شمالاً إلى نهر القرن جنوباً. وتنقسم بلاد بشارة عموماً إلى ثماني مقاطعات: ثلاث منها في بلاد بشارة الشمالية، وهي الشقيف والشومر والتفاح المعروفة الآن بناحية جباع. والأربع الأخرى في بشارة الجنوبية وهي: تبنين وهونين وقانا ومعركة، ويتألف الآن منها قضائي صور ومرجعيون. والمقاطعة الثامنة هي مقاطعة جزين. لمزيد من التفاصيل انظر آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص ٢٨؛ رضا: المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، ص ٤٢٥-٤٣٣.

١١٩- الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٧؛ الترك: ص ٧٦.

١٢٠- رافق: الموسوعة الفلسطينية: ج٢، ص ٧٢٣.

١٢١- الترك: ص ٧٦-٧٧؛ الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٨؛ النمر: ج١، ص ٢٢٢.

١٢٢- لوكروا: ص ٢٣٢.

١٢٣- العودات: ص ٢٢.

١٢٤- الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٨.

١٢٥- النمر: ج١، ص ٢٢٤.

١٢٦- رافق: الموسوعة الفلسطينية: ج٢، ص ٧٢٥.

١٢٧- هيرولد: ص ٣٩٦.

١٢٨- لوكروا: ص ٢٢٢؛ الترك: ص ٧٩-٨٠.

١٢٩- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٧٢٥؛ لوكروا: ص ٢٤٦.

١٣٠- هيرولد: ص ٤٠٨؛ رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص ٧٢٦.

١٣١- هيرولد: ص ٤١٣.

١٣٢- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٧٢٦.

١٣٣- الجبرتي: ج٢، ص ٢٨٧.

١٣٤- عنان: ص ٥٧.

١٣٥- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٧٢٦.

١٣٦- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص ٧٢٦.

١٣٧- العارف: ص٢٧٣.

١٣٨- هيرولد: ص ٤٢١.

١٣٩- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٧٢٦.

١٤٠- المبيض: ص٣٣١؛ سكيك: ج٣: ص ١٠٢.

١٤١- رافق: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٧٢٦.

١٤٢- المبيض: ص٣٣١.

١٤٣- عبد الرحيم: ص ٢١٠.

١٤٤- الجبرتي: عجائب، ج٢، ص٢٩٠.

١٤٥- المبيض: ص ٣٣٣.
١٤٦- الشناوي: ص ٣٥؛ قاسمية: ص١٢؛ جرار: أسرار حملة نابليون، ص ١١٩-١٢١. ولكن هناك شكوك حول صحة هذا النداء. لمزيد من التفاصيل حول ذلك انظر خضر: ص٧٨-٨٢.
١٤٧- الشهابي: تاريخ الأمير، ج٢، ص ٨٨٨.
١٤٨- عوض: ص ٣١٦.
١٤٩- لمزيد من التفاصيل عن هذه النقاط انظر: الجبرتي: ج٢، ص ٢٨٨-٢٨٩. بخصوص ذكر تيبو يبدو أن نابليون يقصد هنا مقتله على يد الإنجليز وبالتالي فشل أحد أركان مشروعه للتقدم إلى الهند.
١٥٠- أوبري: ص ٥٨.
١٥١- أنظر مثلاً Watson: p. ٣٣.
١٥٢- Cohen: pp. 28-29؛ الطباع: ج١، ص.293
١٥٣- بازيلي: ص ٧٩.
١٥٤-جرار: تاريخ ما أهمله التاريخ، ص ٩١.
١٥٥- Carmel: pp. 302-303.
١٥٦- مناع: ص ٣٠٣. ورد لدى الترك أن قتلى الجيش الفرنسي على أسوار عكا وصل إلى ٣٥٠٠ بينما مات منهم بسبب الطاعون نحو ألف. الترك: ص٨٢.
١٥٧- توما: ص ٦٤؛ Karmon: pp. ٨٠-٨١

قائمة المصادر والمراجع

١- اسماعيل، منير وعادل: الصراع الدولي حول الشرق العربي: الوثائق الدبلوماسية، القسم الأول: عهد الولاة في الدولة العثمانية، الجزء الأول: الوجود الروسي في شرقي المتوسط-حملة نابليون-محمد علي في بلاد الشام، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٩٠م.
٢- أنيس، محمد: النشاط الأوروبي بمصر وجيرانها أواخر القرن الثامن عشر الميلادي: مصادره ووثائقه، المجلد الثاني، العدد الثاني، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٤٩م، ص١١٣-١٣٤.
٣- اوبري، اوكتاف: نابليون، ترجمة متري شماس، المنشورات العربية، لبنان، ١٩٦٩م.
٤- بازيلي، قسطنطين: سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م.
٥- البرغوثي، عمر صالح، خليل طوطح: تاريخ فلسطين، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠١م.
٦- الترك، نقولا: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر والشام، تحقيق ياسين السويد، دار الفارابي، بيروت، ط١, ١٩٩٠م.
٧- توما، أميل: فلسطين في العهد العثماني، الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان، د.ت.
٨- الجبرتي، عبد الرحمن: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٣ج، دار الفارس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. د.ت.
٩- جرار، حسني أدهم: أسرار حملة نابليون على مصر والشام، دار الضياء، عمان، ١٩٩٠م.
١٠- جرار، عبد الهادي: تاريخ ما أهمله التاريخ، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٨م.
١١- الحويك، الياس طنوس: تاريخ نابليون الأول، ٣ج، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.
١٢- الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
١٣- خضر، بشارة: أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم، ترجمة منصور القاضي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١, ٢٠٠٣م.

١٤- الدباغ، مصطفي مراد: بلادنا فلسطين، ١٠ج، دار الطليعة، بيروت، ط١, ١٩٧٤م.
١٥- رافق: عبد الكريم: فلسطين في عهد العثمانيين، أنيس الصايغ وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، بيروت، ط١, ١٩٩٠م.
١٦- رضا، أحمد: بنو عاملة، العرفان، مجلد ٣١، ج٥، صيدا، نيسان ١٩٤٥م، ص ٢١٨-٢٢١.
١٧- رضا، أحمد: المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، المقتطف، مجلد ٣٦، القاهرة، مايو ١٩١٠م، ص ٤٢٥-٤٣٣.
١٨- سعيد، إدوارد: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٤, ١٩٩٥م.
١٩- سكيك، ابراهيم: غزة عبر التاريخ، ١٠ج، غزة، ١٩٨٠م.
٢٠- شكري، محمد فؤاد: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢١- الشناوي، فهمي: وعد نابليون لليهود سبق وعد بلفور ب١١٨ سنة، عدد ١١٦، أب ١٩٨٥م، مجلة الدوحة، ص ٣٤-٤٥.
٢٢- الشهابي، حيدر: تاريخ أحمد باشا الجزار، نشره ووضع حواشيه وفهارسه أنطونيوس شبلي وأغناطيوس عبده خليفه، مكتبة انطوان، ١٩٥٤م.
٢٣- الشهابي، حيدر: تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي، ٣ج، دار الآثار، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
٢٤- صافي، خالد: ظاهر العمر الزيداني ١٦٨٩-١٧٧٥م، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧م، رسالة ماجستير غير منشورة.
٢٥- الصباغ، ميخائيل: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد، عني بنشره وتعليق حواشيه، الخوري قسطنطين الباشا المخلصي، مطبعة القديس بولس، حريصا، د.ت.
٢٦- آل صفا، محمد جابر: تاريخ جبل عامل، منشورات دار متن اللغة، بيروت، ب.ت.
٢٧- الطباع، عثمان: إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، ٤ج، تحقيق عبد اللطيف أبو هاشم، مكتبة اليازجي، غزة، ط١, ١٩٩٩م.
٢٨- العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، مطبعة العارف، القدس، ١٩٦١م.

٢٩- العسلي، بسام: نابليون بونابرت ١٧٦٨-١٩٢١م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.
٣٠- عمر، عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣م.
٣١- عنان، ليلى: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، دار الهلال. د.ت.
٣٢- العودات، يعقوب: إسلام نابليون، جرش، د.ت.
٣٣- عوض، أحمد حافظ: فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٥م.
٣٤- فشر، هربرت: نابليون، ترجمة محمد مصطفى زيادة، دار المعارف، مصر، ١٩٥٢م.
٣٥- فولني، س، ف: ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام، ج١، ترجمة أدوارد البستاني، دار المكشوف، بيروت، ط١, ١٩٤٩م.
٣٦- قاسمية، خيرية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨-١٩١٨م، مركز الأبحاث، م.ت.ف، بيروت، ١٩٧٣م.
٣٧- كرد علي، محمد: خطط الشام، ٦ج، مكتبة النوري، دمشق، ط٣, ١٩٨٣م.
٣٨- كرمل، ألكس: تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين، ترجمة تيسير الياس، جامعة حيفا، حيفا، ١٩٧٩م.
٣٩- لوتسكي، فلاديمير: تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت، ط٧, ١٩٨٠م.
٤٠- لودفنج، أميل: نابليون، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٦م.
٤١- لورنس، هنري وآخرون: الحملة الفرنسية في مصر: بونابرت والإسلام، ترجمة بشير الشهابي، سينا للنشر، القاهرة، ط١, ١٩٩٥م.
٤٢- لوكروا، ادوارد: الجزار قاهر نابليون، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
٤٣- المبيض، سليم: غزة وقطاعها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
٤٤- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ط٢, ١٩٧٣م.
٤٥- المدني، زياد: مدينة القدس وجوارها خلال الفترة ١٢١٥-١٢٤٥/ ١٨٠٠-١٨٣٠م، منشورات بنك الأعمال، عمان، ط١, ١٩٩٦م.
٤٦- مناع، عادل: أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٨٠٠-١٩١٨م، مؤسسة

الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٢ , ١٩٩٥م.
٤٧- مناع، عادل: تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨م قراءة جديدة، بيروت، ط، ١٩٩٩.
٤٨- النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ٣ج، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، ط٢ ، ١٩٧٥م.
٤٩- نوفل، نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام في إقليمي مصر وبر الشام، أوجزه وقدم له جرجي يني، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٠م.
٥٠- هيرولد، كرستوفر: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد ندراوس، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

1- Carmel¨ Alex: A Note on the Christian Contribution to Palestine's Development in the 19th Century¨ in Kushner David¨ Palestine in the Late Ottoman Period: Political, Social and Economic Transformation, Yad Izhak Ben-Zvi, Jerusalem, 1986.
2- Cohen, Amnon: Palestine in the 18th Century: Patterns of Government and Administration, The Magnes Pres, The Hebrew University, Jerusalem, 1973.
3- Karmon, Yehuda: Changes in the Urban Geography of Hebron During the Nineteenth Century, in Ma'oz, Moshe, Studies on Palestine During the Ottoman Period, The Magnes Press, Jerusalem, 1975
4- Volney, M.C.F: Travels Through Syria and Egypt: in the Year 1783-1784 and 1785, 2 Vol., G.G.L. and J. Robinsono, London, 1786
5- Watson, C.M: Bonaparte's Expedition to Palestine in 1799, in Palestine Exploration Fund Quarterly Statement, London, January 1917, pp.17-35.